هنري لامان

الشقيقتان

رواية بلجيكية

ترجمة عن الفرنسية

د: باسم صابر ميخائيل



رواية بلجيكية

الشقيقتان

هنري لامان

ترجمها عن الفرنسية

د. باسم صابر ميخائيل



عنوان الكتاب:
الشقيقتان
اسم المؤلف:

هنري لامان
اسم المترجم:
د. باسم صابر ميخائيل
التصنيف العمري:
E
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-715-94-8
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-4969034

ما أعجب صنع الطبيعة! فهي الأم الحانية التي تثير الدهشة في كل لمسة من لمسات عطائها، لكنها في بعض تجلياتها تبدو أكثر رقةً وبهاءً، وكأنما تنكشف من وراء أفعالها يد الخالق المبدع ترسم بفيض رحمته لوحاتٍ آسرة تفيض بالعجب والجمال!
ومن أبدع ما تنسجه أنامل الطبيعة، ولادة شقيقتين توأمتين، تتشاركان اللحظة الأولى في معترك الحياة، فتنعقد بين قلبيهما وشائج المحبة منذ أن تفتحت أعينهما على الوجود. تكبر العاطفة معهما، وتنمو جذورها في أعماق روحيهما حتى تصيرا كروح واحدة في جسدين، لا تهزها تقلبات الأيام، ولا تفتر أواصره مهما اشتدت الأزمات. يتشاطران الفرح إذا لاح، ويتعاضدان في الحزن إذا ادلهمت سحائبه، يمضيان معاً في دروب الحياة، لا يفرق بينهما إلا نداء القدر الأخير، وحتى في مفارقتهما للحياة، قد يضمهما ضريح واحد، كما جمعهما المهد في بادىء الأمر، لتظل ذكراهما نقشاً خالداً في جدار الزمن.
يمتد بهما العمر، وتدور بهما الأيام في تقلباتها، فلا تزيدهما نوائب الدهر إلا تماسكاً، ولا تزيدهما تقلّبات الأقدار إلا تشبثاً ببعضهما، وحتى إن حان أوان الرحيل، وأطل الموت بظلاله القبيحة، كان لهما عند الفراق أنين واحد، وزفرة واحدة، وربما جمع بينهما قبر واحد إلى أبد الآبدين.

الفصل الأول

لو قُدر لك أيها القارئ الفطن أن تصعد قبل أعوامٍ قلائل إحدى قمم لبنان، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن الطريق الواصلة بين بيروت ودمشق، لرأيت على منعطف تل أخضر، في موضعٍ من أبهى مواقع الجبل، بيتاً أنيقاً، بهي الطلعة، متناسق البناء، وقد شيده السيد "ب"، وهو القنصل العام لإحدى الدول الكبرى آنذاك في سوريا، ولذلك لم يتوانَ عن اتخاذه مصيفاً يلوذ به مع أسرته هرباً من وهج الصيف اللاهب في بيروت.

كانت إحدى جهات المنزل تتوارى خلف أشجار الأَزدرخ والصنوبر، حيث تهتز أغصانها بفعل لمسات النسيم العليل، بينما تعزف الطيور فوق أغصانها ألحان الصباح والمساء. أما الشكل المعماري للبناء فلم يشبه شيئاً مما جاوره من المصايف، فقد شاء صاحبه أن يجمع في معالمه بين رونق المصايف السويسرية وسحر البيوت السورية العصرية، ولذلك علا سقفه القرميد الأحمر على هيئة مخروط، وبرز من منتصف واجهته شرفة مستطيلة تطل على الأفق، وكأنها فسحة للروح في بزوغ الصباح وحلول المساء. امتد في مواجهة البيت فناء واسع يكشف للناظر مشهداً بديعاً، إذ ينبسط البحر من بعيد فتنسكب عليه أشعة الشمس الذهبية، أو تهدر أمواجه العاتية فتنثر على الساحل طوقاً من لؤلؤ الزبد الناصع.

وهناك، تستكين بيروت، حيث يكسو ملامحها وقار الملكات مستندة إلى سفح الجبل، وباسطة قدميها في حضن البحار، وقد التفت حولها بساتينها الغناء كطوق من زمرد، وصنوبراتها الوارفة كإكليلٍ من خضرة وجمال. ولو تأملت التلال المجاورة ليفتنك من لبنان مشهد يأسر الألباب ويخلب القلوب.

في اليوم الذي تفتتح به قصتنا، كانت أرجاء الدار تعج بالحركة والنشاط، حيث انهمك أهلها في إعداد حجرة أنيقة لاستقبال ضيف رفيع المقام قادم من بلاد اليونان، إنه البارون "شارل دو لينس"، رجل مفعم بالنشاط والنضارة رغم تجاوزه الخامسة والثلاثين، سياسي مرموق يشغل مكانة عالية في عاصمة بلاده، نذر نفسه لخدمة وطنه بهمة لا تعرف الوهن. كان البارون ذا خلق كريم وقلب رقيق، بيد أنه شديد التمسك بعقيدته، يبدي آراءه دون تردد أو مجاملة.

لقد نشأ "شارل" يتيم الأبوين، فاحتضنه أحد أعمامه ورباه في كنفه مودعاً إياه ميراثاً يتمثّل في عراقة الاسم وثروة طائلة. غير أن ذلك الثراء الفاحش لم يقيد طموحاته، فقد كان ممتلئاً بروح الشباب، يتوق إلى الانعتاق من أثقال السياسة التي أرهقته وأقضت مضجعه، ويتحرق شوقاً إلى حياة نابضة بالحركة بمنأى عن رتابة العزلة والانطواء. فما إن تلقى خطاباً من القنصل السيد "ب"، صديق والده الراحل، والذي دعاه إلى مصيفه في لبنان حتى استبشر بالأمر، وبادر إلى طلب إجازة لشهرين، فوكل أعماله في السفارة إلى أحد أقرانه، ولم يتوانَ عن استقلال سفينة تجارية من ميناء بيرا مبحراً صوب بيروت.

كان البارون عاشقاً للأسفار البحرية، غير أن لهذه الرحلة وقعاً خاصاً في قلبه، فقد تزامنت مع أجواء أغسطس الهادئة، حيث السماء الصافية، والنسيم العليل، والمناظر الخلابة التي تأسر العين. وبينما تشق السفينة أمواج البحر، راح يستغرق في تأمل ماضيه متكئاً على حافة المركب ليستعيد ذكرى تقلبات حياته وتنقلاته، رغم أنه لم يكد يبلغ سن الكهولة بعد. قارن بين أيامه الماضية المثقلة بأعباء السياسة، وحاضره المريح، فشكر لصديقه القنصل هذه الفرصة التي أتاحت له استراحة من صخب اليونانيين الذين لا ينفكون يفاخرون بأمجاد أسلافهم، ويرفعونهم إلى مصاف الآلهة، أو يتباهون على سائر الشعوب وكأنهم سادة الكون.

ها قد بات حراً طليقاً بعيداً عن الجدل السياسي والمجاملات الدبلوماسية، وليس في حاجة إلى إبداء رأي في صراع الأحزاب، ولا إلى الإطراء على حنكة السيدة "بولو" أو جمال وأناقة ابنة السيد "يدس". لقد صار سيد نفسه في نهاية المطاف!

وبينما كان "شارل" غارقاً في لجج أفكاره مضت السفينة قُدماً عبر الأمواج متجاوزة رأس "سونيوم" متجهة صوب "إزمير"، وعابرة بين جزر الأرخبيل العديدة مثل "ديلوس" و"ناكسوس"، والتي بدت في أولى ساعات الليل كأجرام عظيمة بلا

ملامح لا يفرقها عن سواها إلا أضواء مناراتها المتلألئة من حين إلى آخر على ساحلها كهمسات تحذر السفن من مكامن الصخور. وفي سكون الليل، لم يتناهَ إلى المسامع سوى صوت السفينة وهي تمضي في الماء بإيقاع ثابت، في حين أن الركاب قد انصرفوا إلى مضاجعهم.

أما السماء، فقد كانت صافية يرصعها بريق النجوم كأنها درر مبعثرة، وانعكست أنوارها البراقة على صفحة البحر، فتجلت صورة تبهر العقول وتسحر القلوب رافعة الأبصار إلى خالقها.

بيد أن هذه المناظر، رغم سحرها البديع، لم تكن كافية لصرف عقل البارون عن أفكاره المتشابكة التي أخذت تتنازع روحه منذ زمن قريب. أجل، لا شك أن رؤية لبنان، الذي كان وجهته، أمر مبهج للنفس، ولقاء الأصحاب منبع فرح صافٍ، ولكن، ما الذي سيحل به بعد ذلك؟ إلى أين سيحط رحاله؟ وأين يجد ملاذاً لاستقراره وطمأنينة لنفسه؟

هل تراه ينتهي به المطاف كما توقع القنصل "ب"، الذي قد يكون استدعاه ليقترح عليه الزواج بإحدى بناته، مثلما فعل كثيرون غيره، في محاولة لتقييده بقيود الزواج وينتزعه من حريته؟

وما إن خطر ذلك السؤال في ذهنه حتى علا محياه وجوم ثقيل، وأطرق برأسه حائراً، ثم نهض بعد لحظة يأوي إلى فراشه غير مبالٍ بأي شيء. غير أن الليل لم يكن له سكناً، فقد تقلب على سريره تتنازعه الهموم، وما إن طرقت باكورة أضواء الفجر مصراعي النافذة حتى صعد إلى سطح السفينة، فإذا بوجه البحر تضطرب أمواجه برفق، وعلى مقربة منه لاحت سواحل "كرمانيا" وجبالها الشاهقة، حيث يلفها وشاح من النور الذهبي في وهج الشمس الصاعدة.

ورغم كل ذلك الجمال الماثل أمامه لم تهدأ روحه، بل عادت أفكار المساء المضطربة تعكر صفو صباحه، فظل طيلة يومه على سطح السفينة يذرع المكان جيئةً وذهاباً غارقاً في دوامة التفكير في مستقبله، ومردداً مع نفسه: "وماذا بعد؟".

أي نفع في هذه التربية الرفيعة التي نالها منذ صباه؟ وأي ثمرة لدروسه التي أنارت عقله؟ ولأي غاية يسخر قدراته وثقافته؟ وما الذي سيفعله بهذه التركة الواسعة التي أورثه إياها والده الراحل؟

أيتخذ سبيل الكهنوت أو الرسالة وتكريس الذات لله؟ نعم، إنها دعوة جليلة دون أدنى شك، ولكنها لا تكون إلا لمن اصطفاه الله لها، ولا يسوغ لإنسان أن يسبق إرادته سبحانه وتعالى.

أيميل إلى خوض تجربة الزواج؟ ذاك طريق الناس عامةً، ولكن يا للأسى كم من رجل انبهر بالمال أو الحسن، فوجد نفسه في شرك امرأة لا يكسوها إلا بريق زائف، فإذا جوهرها دون مظهرها، حيث تقضي أيامها في التفاهات وتتفوه بالترهات، فتزيد من عبء زوجها كما تُرهق الأثقال الظهور.

أم يبقى وحيداً منزوياً بمنأى عن صخب وضجيج الحياة مستغرقاً في العلم، ومتفرغاً لصنع الخير لمن حوله؟

أفكار كثيرة راحت تتلاطم في عقله كأمواج البحر الثائرة معكرةً صفو ما تبقى من رحلته، ولكن حين بلغت السفينة ميناء بيروت أفاق من شروده، وقد أبهجه منظرها البديع فاستعاد وعيه، وكأن نسمات المدينة حملت إليه الطمأنينة والسكينة اللتين افتقدهما فيما سبق.

الفصل الثاني

يا لسحر بيروت الفاتن! ما أروع موقعها، وما أبهاها حين تطل على المقبل صوبها لأول مرة، إذ تبدو كدرة متألقة على صفحة الماء، حيث تأسر قلب الغريب وتستحوذ بجمالها على عقله. فلا عجب أن كل وافد يرنو إلى بهائها فلا يقاوم سحرها، ويذوب في وهج أضوائها البراقة وسحرها الخلاب.

كان البارون "دو لينس"، رغم كثرة ما رأى من مدن وأمصار، عاجزاً عن كتمان دهشته أمام ذلك المشهد الفاتن. مدينة شامخة تتغلغل في البحر كما لو أنها تقتحم لججه في جرأة وجسارة، حيث تتربع على سفوح الجبال التي تتدثر بوشاح من السحب، وتزدهي قممها بتاج ثلجي بهي. بيوتها راسخة كأنها امتداد للطبيعة، وأشجارها باسقة تعانق الأفق، تتناغم فيها مرافئ البر والبحر والجبل والسهل في انسجام فريد من نوعه يبعث في النفس رهبة وإعجاباً.

غير أن أفكار البارون لم تكن ساكنة بالقدر الكافي الذي يتيح له الاستسلام الكامل لجمال بيروت الأخّاذ. كانت خواطره مشدودة إلى المصيف التابع للقنصل "ب"، فبمجرد أن حطّ رحاله، لم يمضِ عليه وقت طويل حتى استقل العربة في صبيحة اليوم التالي، متجهاً صوب تلك الدار التي طالما سمع عنها. وما إن بلغ الموضع عند الضحى حتى كان أهل البيت قد هيؤوا له استقبالاً يليق بمكانته، فأحاطوه بحفاوة بالغة وبالغوا في إكرامه حتى شعر بعد لحظاتٍ وكأنه في داره متناسياً عناء السفر وتقلّباته.

والحقيقة أن بيت السيد "ب" كان أكثر من مجرد دار للسكنى، بل كان واحة هادئة تجمع كل أسباب الراحة والهنا، وقد أتقن أصحاب الدار فن الضيافة، فراحوا يمزجون الكرم بالنبل، والبساطة بالرقي، ويغمرون ضيفهم بأجواء تفيض بالمودة والاحترام.

وما إن استقر البارون في هذه الدار حتى تنفس الصعداء، وأحس بروحه تنتعش، وكأن قوته عادت إليه بين أناس لم تعرف أخلاقهم الزيف، ولم يعكر صفاء مودتهم رياء أو تصنع. فشتّان ما بين ذلك الجو الحميمي، وما كان يعيشه في "أثينا"، حيث كانت مشاغل منصبه تقيده بقيودٍ لا مفرّ منها فيخالط أناساً أعمتهم المظاهر وأرهقتهم الأنانية، فلا ينعم بينهم بالراحة أو الطمأنينة. أما في بيروت، في قلب الطبيعة البكر، فقد شعر أخيراً بنسمات الحرية تهب عليه، كأنها تبشره بانعتاقه من ثقل الأيام المنصرمة.

وما لبث أن بدأ جولاته مع القنصل في أرجاء المصيف، فتارةً يعتلي صهوة الجياد ويقطع السهول والبيد، وتارة أخرى يهبط إلى الوديان، أو يصعد إلى الجبال، حيث ينطلق وراء الطرائد، متلذذاً بحماسة الصيد ومتعة القنص. زادته هذه الرحلات تعلقاً وارتباطاً بالمكان، وعمقت في نفسه الإحساس بأنه قد وجد أخيراً ملاذاً آمناً وركناً هادئاً يعيد إليه صفاءه المسلوب.

لقد قضى البارون أيامه في نعيم هادئ بعيداً عن صخب الدنيا وضجيجها متحرراً من المجالس الصاخبة التي لا تهب للقلب سلاماً ولا للنفس استقراراً. إلا أن ما زاد حياته بهجةً وانشراحاً لم يكن سوى تلك الأوقات التي يأنس فيها برفقة عائلة القنصل "ب" عند طرفي النهار، إذ يطرح عنه وقتئذ كل تكلف، ويطلق لمشاعره العنان مستمتعاً بأحاديثهم العذبة التي كان يعدّها من أسعد لحظات عمره وأهنأها.

ومنذ أن حلّ بهذه الأرض خفق قلبه بميل خفي نحو ابنتي القنصل، إذ وجد فيهما خصالاً فريدة وصفات حميدة، وكأنهما غصنان من أصل واحد غذتهما أمومة حانية في ذات الوقت.

كان اسماهما "سوسنا" و"وريدة"، ولم يتجاوز عمر كلٍّ منهما الثامنة عشرة، لكنهما كانتا تتشابهان في الحسن والقدّ، وكأنهما مرآتان تعكسان ذات الجمال الرقيق. وُلدتا في أرض المغرب، غير أن نشأتهما وترعرعهما كانا في الشرق، فأخذتا من فضائل الشرق والغرب؛ حيث حملتا براءة الشماليين وعفويتهم الممزوجة برونق أهل الشرق ووقار ورزانة طباعهم، فانعكس في شخصيتيهما تجانس فريد بين طابعين متباعدين تآلفا في هيئة خلابة.

أما والدتهما فكانت سيدة رزينة ذات بصيرة نافذة، حيث اجتمعت فيها أرقى الصفات، فأرضعتهما من لبان فضائلها، وسقتهما منذ نعومة أظفارهما روح التقوى والحياء، فنشأتا في كنفها الطاهر، ولم تعرفا ملاذاً غيره، حتى غدت دار الأبوين

جنتَهما الآمنة لا ترضيان عنها بديلاً، ولا تألفان غيرها أنيساً، فلم تتألق وتشع عيونهما إلا بصفاء يعكس نقاء القلوب، ولم يكن في جوهرهما إلا الطهر والبراءة.

وباختصار، جسدت "سوسنا" و"وريدة" أسمى معاني الأخوّة الحقيقية، فلو سعى الرواة أن ينسجوا مثالاً لشقيقتين توأمتين ارتبطت أرواحهما برباط وثيق لوجد فيهما ما يصاغ في قصصهم دون تضخيم أو تزييف للحقائق. لقد كانتا بحق روحين نقيتين تجسدتا على الأرض تمثلان بأصدق صورة ما يتخيله الأدباء عن التوائم المتآلفة، حيث المحبة خالصة، والوفاء نقي لا تشوبه شائبة.

كان من خصائص الابنتين المذكورتين تشابه ملامحهما وقامتيهما وصوتيهما، وكأن الطبيعة صاغتهما من ذات الجوهر، فلم تكن العين تفرق بينهما، إلا عين أمهما التي ميزتهما بحب الأم الفطري وحدسه الذي لا يجانبه الصواب. أما سائر الأهل، فقد اضطروا طويلاً إلى التمييز بينهما بعلامات خاصة، لئلا يلتبس الأمر عليهم.

استمر ذلك التشابه العجيب حتى بلغتا عامهما الثاني، حين بدأت ملامح التمايز ترتسم على وجهيهما، إذ أخذت بشرة "سوسنا" تزداد بياضاً وشعرها يميل إلى الشقرة، بينما ازدهى لون "وريدة" واحمرت وجنتاها، وأصبح شعرها قاني السواد، وكأن الطبيعة قد قررت أن تضفي على كل منهما طابعاً يتناغم مع الاسم. ولم تكتفِ الطبيعة بذلك، بل جارتها الأم فاختارت لكل منهما ثياباً تعكس اسميهما وملامحهما، وكأن القدر رسم لهما أن تجسدا بصدق جوهر معاني أسمائهما.

ولم يكن وصفنا السابق لجمال الشقيقتين وأخلاقهما سوى انعكاسٍ لما استقر في قلب البارون "دو لينس"، والذي وجد نفسه ميالاً إليهما، ومأخوذاً بسحر أخلاقهما قبل حسن وجهيهما. وما زاد إعجابه بهما هو ذلك التوافق النادر بينهما، إذ كانتا تتباريان في الفضائل والصلاح، لا يعكر صفاء ودادهما حقد ولا غيرة، وقد ألف أن يشبههما بزنبقتين متآلفتين؛ تنموان من جذر واحد وتزدهران في رحاب المودة والوفاء.

وفي حقيقة الأمر بدا الارتباط بين "سوسنا" و"وريدة" وثيقاً لا ينفصم، حيث تتشاركان الأفراح والأتراح، وتتوحدان في الأفكار والعواطف حتى ليخال المرء أنهما روح واحدة متجلية في جسدين. ومع ذلك، فقد كان لكلّ منهما طبعها المتفرد؛ فسوسنا تراها ميالة إلى التأمل والصمت، بينما كانت "وريدة" تتسم بالبشاشة مشرقة الروح تتعالى ضحكاتها لتملأ الأرجاء. ولعل ذلك ما جعل "سوسنا" تميل أحياناً إلى العزلة والتفكير في حياة الرهبنة وتكريس الذات لخدمة الله، حيث كانت الراهبات قد غرسن فيها حبها لهذه الفكرة منذ نعومة أظافرها. غير أنها حين أفشت سرها الدفين لشقيقتها، سرعان ما انتاب "وريدة" حزن عميق، وألحت عليها ألا تفكر في الفراق والهجر، فما كان من "سوسنا" إلا أن عدلت عن فكرتها ولم تعد تتطرق إليها في حديثها.

أما البارون "دو لينس" فمع إعجابه العميق بالفتاتين، وجد فؤاده ميالاً إلى "وريدة" أكثر من شقيقتها، فقد أسرته روحها الطليقة، وحديثها العذب، ونباهة عقلها، إلى جانب نقاء قلبها واستقامة أخلاقها. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يرى مانعاً من الاقتران بها، فقد وجد فيها المرأة الفاضلة التي وصفها الكتاب المقدس بأنها أثمن من اللآلئ. ومع مرور الأيام، تحوّل إعجابه بها إلى مودة صادقة، ثم إلى حب متين جم، وحين انقضت مدة إجازته وحان وقت عودته إلى "أثينا" أفصح عن نيته للقنصل وتقدم لخطبة ابنته "وريدة". وبعد أن عُرض الأمر على الفتاة ولم يوجد منها سوى القبول، لم يرَ السيد "ب" مانعاً من تزويجها للبارون ليتوج الحب برباط مقدس يؤلف بين قلبين تقاربا على المحبة الخالصة والإخلاص التام.

الفصل الثالث

بدا خريف ذلك العام غامراً بالمطر، وكأن السماء تهمس للأرض بأسرارها عبر قطرات وزخات لا تنقطع. ارتوت السواحل بنسيم ندي، وأخذت الجبال تتوشح بأوراق الأشجار المتساقطة، فأصبح بردها شديداً وقارساً يدفع أهل بيروت للهبوط عن مرتفعاتهم ومصايفهم عائدين إلى المدينة حيث النسيم المعتدل والأشغال المألوفة. وما هي إلا أيام حتى عادت بيروت إلى حيويتها المعهودة بعد سكون الصيف.

وفي طليعة العائدين، حطت عائلة القنصل "ب" رحالها في دار القنصلية، ذلك البيت الفسيح المتربع عند رأس المدينة، والذي تلتف حوله حديقة غناء تتعانق فيها الزهور بالأشجار الباسقة كأنها قصيدة مجسدة من ألوانٍ وعطور.

بيد أن هدوء البيت المعتاد تبدد في الأيام الأخيرة، إذ دبت فيه حركة غير معتادة، لا لشيء إلا تأهباً لزواج سعيد مرتقب. كان من البديهي أن تكون الشقيقتان أولي المنشغلات بترتيب وإعداد عدة الحفل، غير أن "وريدة" لم تُبدِ من الحماسة ما أبدته شقيقتها. لقد بقيت على سجيتها، مرحة لعوبة، لا يعكر صفاء قلبها قلق أو هم أو كدر، وكأن الأمر لا يعنيها بل يعني سواها. في حين أن "سوسنا" بدت أكثر هدوءاً، يكسوها طابع الرصانة والتأمل.

غير أن من يتوهم لوهلة أن وريدة تمضي نحو الزواج بحماسٍ بريء واندفاع طفولي مخدوعةً بزهوه يكون قد جانبه الصواب دون أدنى شك، فقد كانت تعي أكثر من غيرها أن أسفل الزهر شوك حاد لا يتحملٍ وخزه إلا من كان ثابت العزم، صلب الإرادة. ولذلك كثيراً ما اختلت بنفسها في حجرتها تُعد ذاتها لهذا الاقتران، متوسلةً إلى الله أن يزين قلبها بما يقتضي الزواج من فضائل، وأن يبارك خطاها في ذلك الدرب جاعلاً إياها سعيدة ومذعنة لإرادته سبحانه وتعالى.

أما والدتها، فقد استشفت واستشعرت خلال الشهرين الأخيرين من نظرات ابنتها خواطرها العميقة وما يخالج نفسها من أفكار، فاغتنمت الفرصة لكي تمهد لها الطريق الوعرة وتمنحها بصيرة تعينها على المضي قدماً.

غير أن "سوسنا" لم تظل على حالها، فقد استقبلت نبأ خطوبة شقيقتها بفرح غامر في بادئ الأمر، ولكن بهجتها لم تلبث أن تلاشت وتبددت سريعاً، وقد حل محلها حزن مبهم عجزت عن إخفائه عن عيني شقيقتها. فطنت "وريدة" إلى تبدل أحوالها، وفعلت كل ما بوسعها لكي تبدد كآبتها بمرحها المعتاد وإشراقة وجهها، ولكن باءت جميع جهودها بفشل ذريع؛ إذ تبدى لها أن شيئاً ما يعكر الصفو، وتبدل بين القلبين اللذين ألفا أن ينبضا بوداد لا تشوبه شائبة.

الفصل الرابع

حين يطل الخريف بوشاحه المبلل، وينشر في الأفق أطنابه يكسو الأرواح بطمأنينة لا يألفها المرء في غيره من الفصول. فمن ذا الذي لا تغمره السكينة حين يلين الهواء بعد لهيب الصيف، وتداعب النسائم خدود الأشجار فتتهادى أوراقها صفراء كأنها رسائل وداع؟ لا شك أنها لحظات تبعث في القلب متعة خاصة وتأملاً، لحظات يزداد فيها الفكر صفاءً، ويترقرق في النفس شعور غامض من الرضا، ولا سيما حين تجرجر الشمس أذيالها صوب المغيب، وحين يسدل الليل ستائره ويبسط رداءه على الكون الفسيح، فيبدو وكأنه سيدة مهيبة بهية الطلعة تبث في الأفق رهبةً وسحراً، وعندئذ تفتح الآفاق أعينها لتمعن النظر في أحلام البشر، وترتقي أرواحهم لتحلق صوب القمم، فيالروعة تلك الساعات العذبة التي يقضيها المرء غارقاً في فكره هائماً في نبضات قلبه متقرباً إلى خالقه بورعٍ وخشوعٍ شاكراً على فيض النعم التي أغدقت بسخاء. غير أنها لسوء الحظ لحظات عابرة، لحظات خاطفة كوميض البرقٍ تنسابٍ من بين الأصابع قبل أن يفطن المرء إلى جمالها، وكأن الزمن يتسارع ليطويها في غياهب الذكرى.

في إحدى أمسيات أواسط نوفمبر، وحينما كان الأفق نقيَّ الصفاء، حيث تتوهج في سمائه النجوم كحبات لؤلؤ نثرتها يد الأبدية، جلست "وريدة" إلى جوار شقيقتها "سوسنا" في رواق الدار تطلان على الحديقة الغناء حيث تفوح الأزهار بعطرها، وتزدان الأشجار بثمارها اليانعة، فلا يُسمع إلا خرير الماء ينحدر من نافورة رخامية وسط الدار، وصدى البحر يهمس على الشاطئ في رقة وانكسار.

لبثت الأختان برهةً تتأملان المشهد، وقد خيم عليهما صمت مطبق، ومن الغريب أن الصمت بات بينهما أثقل من الكلام بعد أن كان قربهما منبعاً للأنس والفرح. وبينما هما في هذه الحالة، إذ بأضواء منارة رأس بيروت قد سطعت فجأة، فألقت بأشعتها الذهبية على الدار، وأنارت وجهيهما، وللتو أبصرت "وريدة" الدموع تترقرق في عيني شقيقتها، فسرت في بدنها رجفة وقالت بنبرة حانية:

– ما خطبك يا سوسنا؟ ما الذي يرهق خاطركِ ويشغل بالك يا أختي الغالية؟ أيعقل أن تكون سعادتي المرتقبة هي الدافع الخفي وراء غمك وشقائك؟.

أطرقت "سوسنا" برأسها، ثم اندفعت إلى صدر شقيقتها، وهي تبكي بحرقة قائلة:

– آهٍ يا أختاه، إنني على وشك الافتراق عنك! ستغادرين بيتنا إلى بيت زوجك، وسيغدو حبكِ لي شيئاً باهتاً من وميض الماضي، ليتك تدركين إلى أي حد يعتصر ذلك الفراق قلبي؟! إنه حقاً كجمرةٍ تضطرم ولا تنطفئ، وأخشى أن ينفطر قلبي من شدة الهم.

تفوهت بهذه الكلمات وأجهشت بالبكاء، بينما سعت جاهدة إلى أن تخفي عن شقيقتها ما يختلج في صدرها من غيرة وحسد.

لم تكد "وريدة" تكشف النقاب عن حقيقة الأمور حتى ارتجف قلبها كوتر مشدودٍ مسه ناي الأسى، فكان لاكتشافها أثر مؤلم أفسد سكينة حياتها وسلب من أيامها فرحتها. باتت كلما رمقت أختها بنظرها، لمحت في عينيها ظلًّا من عتابٍ خفي يضاعف ألمها حتى غدت السعادة نفسها تأنيباً يتغلغل في أعماقها.

مضت بضعة أيام، ومع اقتراب اليوم المشهود، تزايدت في قلب "سوسنا" كآبة صامتة وأوجاع كالجمر تحت الرماد، حاولت كتمانها، ولكن دون جدوى، فمرةً تفضحها حدة طبعها، وأخرى تهرب إلى وحدتها وتنعزل بين جدران حجرتها، وفي بعض الأحيان يعلوها وجوم يلفها كالسواد حتى شحب لونها، وارتعد والداها خوفاً أن تذبل زهرة شبابها، أو يسري في جسدها داء لا يُرجى شفاؤه.

غير أن الفتاة سرعان ما أدركت أن العيون تلاحقها، وتبحث في ملامحها عن سرها الخفي، فاستجمعت شتات قواها، وارتدت قناع الصبر، وتزينت بابتسامةٍ تضمر جراح قلبها، فعاد وجهها يفيض أنساً ورقةً كعهده السابق، فانطلقت بعزم جديد تُعد العدة للاحتفال القادم، وإن كانت تراه نهاية صامتة لسعادتها. وهكذا، لم يعد أحد في البيت يلحظ ما يضطرم

في أعماقها من خواطر متنازعة وهواجس متصارعة، إلا أن "وريدة" وحدها لم تنخدع بهذا التجلّد الزائف، فبقيت تراقب شقيقتها بقلق وريبة.
وعندما جاء اليوم المنتظر، وتمت الخطوبة كما هو معتاد، احتفل السيد "ب" بالمناسبة بكل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والفرح، فتمت الأمور على ما يرام، وأصبح من المتفق عليه أن تحمل "وريدة" لقب "البارونة دو لينس" إثر ارتباطها بخطيبها ذي الأخلاق النبيلة.

الفصل الخامس

حل الاحتفال، فبدت الأختان متماسكتين تشدان أواصر المودة والولاء، وتقضيان نهارهما في رحاب البيت تستقبلان جموع الزائرين الذين توافدوا لتقديم التهاني، فيما تناثرت بطاقات الزيارة والخطابات والتلغرافات من كل صوب حاملة أسمى الأمنيات وأطيب الدعوات للعروسين بالسعادة والهناء.

ولأن البارون كان من رجالات السياسة البارزين، فقد تقاطرت عليه رسائل التهنئة من عواصم أوروبا، من "فيينا" و"أثينا" وغيرها من المدن مشيدة بهذا القِران متمنية لهما حسن العاقبة، فقد رأى الجميع فيهما تجسيداً لما ندر أن يتجمع في غيرهما من النعم: ثراء وجمال، أدب ودين. ولم يفت الزوار الإشادة بمحاسن "وريدة"، تلك الفتاة التي لم يروا فيها فارقاً عن الورود، سوى أنها وريدة لا أشواك لها.

أما "سوسنا"، فقد تلألأت على محياها ابتسامة مشرقة، بهجة لا يُرتاب في صفاء قلبها ونقاء ودادها، غير أن شقيقتها وحدها أدركت ما يتوارى خلف هذا الوجه المنير من تصنع وتكلف، وقد فطنت إلى امتقاع لونها وشحوب وجنتيها رغم ضيائها الظاهر.

وحينما أرخى الليل سدوله، وجاء المساء حاملاً معه عبير الساعة التاسعة، دخل لفيف من الأهل والأقارب إلى قاعة الديوان الكبير يتقدمهم العروسان، وقد كانت "سوسنا" تتهادى في أبهى حللها، حيث ازدانت بالحلي والمجوهرات، يزين خصرها نطاق أزرق مرصع بالأحجار الكريمة يزيده بهاءً فوق ثوبها الأبيض الناصع كثلج الشتاء.

أما "وريدة" فكان شأنها مختلفاً، فقد ارتدت ثوباً بسيطاً لا بهرجة فيه ولا إسراف، ولو رآها شخص غريب لظن أنها ليست صاحبة المناسبة، بل إحدى الحاضرات. أما بالنسبة للحلي، فلم تتزين إلا بصليب صغير من الذهب يتهادى فوق صدرها، وسوارين رقيقين من الفضة يطوقان معصميها في نعومة ووقار.

أما شعرها الأشقر، فقد جمعته بعناية فوق رأسها تشده عصابة سوداء تنسدل بعقدة واسعة، وحين أشارت إليها والدتها أن تستبدلها بأخرى أرجوانية تليق بالمقام، أجابتها بلطف وابتسامة هادئة:

– أجد في الأسود هيبةً ووقاراً، وفي تنوع الألوان بهاءً وانسجاماً، فإن كنتِ ترغبين يا أماه في أن أغيرها، فلن أتردد إكراماً لكِ.

فأجابتها أمها بنظرة مفعمة بالحب:

– ابقِ كما يحلو لكِ يا بهجة القلب، ولكن، ضعي هذه الوردة في نطاقك، فهي وحدها كفيلة بأن تضفي مزيداً من التألق عليك في هذا المساء، وقد آن الأوان، والمدعوون بانتظارك."

وحينما دلف الجميع إلى القاعة استقبلتهم أنسام الليل العليلة حاملة عبق الزهور المتفتحة في حديقة الدار، بينما انعكست أنوار الثريات على المرايا والجدران المصقولة، فبدت القاعة وكأنها تسبح في وهجٍ من النور، حيث يزدان بهاؤها بنقوشها الفاتنة وصورها الأخاذة، وكأنها تنبض بالحياة، تتألق بالبهجة رغم التباين بين الفرح التام والتكلف الخفي.

انتظم الجمع في أماكنهم، وبدت الثياب في أبهى زينتها، حيث ارتدى الرجال حللهم الرسمية، بينما أقبلت السيدات متأنقاتٍ في ثيابهن المترفة تتهادى خطواتهنّ بثقة متباهياتٍ بأناقة غير خاضعة لصيحات العصر، بل تتسم بسحرٍ خالدٍ يأبى الزوال.

وهكذا، افتُتحت السهرة وسط أجواءٍ من البهجة والمرح، وحين همّ العروسان بأن يستهلا الرقصة الأولى، فإذ بسوسنا يشحب وجهها فجأة، ثم تهوي مغشياً عليها وسط القاعة، فهرع إليها الجمع يرشون الماء على وجهها حتى أفاقت بعد بضع لحظات.

لم تكد تستوعب ما جرى لها حتى احمرت وجنتاها خجلاً، فاعتدلت معتذرة للحضور عما ألمّ بها من إعياءٍ طوال النهار. غير أنها أبت أن تستسلم للضعف، بل أصرت بعزمٍ رقيقٍ أن تواصل إحياء السهرة، فنهضت متألقةً بين الحاضرين تشارك الراقصين نشوة الفرح.

ومع اقتراب منتصف الليل، وقد غرق القوم في لهوهم وضجت القاعة بصدى الضحكات، وأنغام الموسيقى المتراقصة، التفتت سوسنا تفتش بعينيها عن شقيقتها لعلها تجدها تشاطرها نشوة الفرح، ولكن عينيها لم تقعا على وريدة، وكأنها تلاشت وسط الزحام. حاولت في بادئ الأمر أن تبدد القلق الذي أخذ يتسلل إلى قلبها، فألقت بنظرها مرة أخرى على الحضور، دققت في تفاصيل الوجوه المتوهجة بالبِشر، جالت ببصرها بين المقاعد والأركان، ولكن دون جدوى. أخذت ضربات قلبها تتسارع رويداً رويداً، وشعرت بأن ثقلاً غامضاً قد جثم على صدرها.

نهضت باضطراب تسير بخطوات مترددة، وهي تسعى لخداع نفسها بافتراضات واهية: "ربما خرجت وريدة قليلاً إلى الشرفة، وقد تكون انشغلت في حديث مع أحدهم، لعلها"، ولكنها سرعان ما أدركت أن قلقها لم يكن محض أوهام، فهرعت إلى والديها تسألهما بصوت مختنق:

– أما رأيتما وريدة؟ ليست بين الجمع.

نظر إليها الأبوان بذهول، وتبادلا النظرات بينهما كأنهما يبحثان عن إجابة غير موجودة، ثم هرعت إلى البارون دو لينس علّه يكون قد لمحها، لكنه اكتفى بهزة رأس ثقيلة زادت اضطرابها. لم تجد مفراً من رفع صوتها، فصاحت بيأس خالجته رجفة خوف:

– أين شقيقتي؟ ألم يرها أحد؟!

ساد القاعة صمت مخيف، ونظر الحاضرون إلى بعضهم بعضاً في حيرة، ثم بدأت الهمسات تتناثر، وتتصاعد كدخانٍ رمادي لا يكشف سوى الغموض. وعندئذٍ، شهقت سوسنا، وكأن موجة من الفزع اجتاحت قلبها، ثم أطلقت صرخة تمزج بين التوسل واليأس:

– وريدة! شقيقتي العزيزة، أين أنتِ؟

ما إن لفظت تلك الكلمات حتى دب الهلع في قلبها، وأخذت تجوب القاعة ذهاباً وإياباً كمن فقد رشده تحدّق في الأبواب والممرات، وتفتّش في العيون المندهشة. في نهاية المطاف، وكأن حدسها دفعها دفعاً، هرعت إلى خارج القاعة ووراءها أهل الدار يلاحقون خطواتها المتعثرة، وقد خيّم الرعب على وجوههم.

انطلق الجميع في بحث محموم، فتشوا كل زاوية في القصر، طرقوا الأبواب، تسللوا إلى الحدائق، تساءلوا عن الفتاة بين الخدم والجيران، ولكن دون أثر يذكر! لم تكن وريدة في أي مكان، يبدو وكأنها تبخرت في الهواء، أو ابتلعتها الأرض في لحظة غدرٍ لا تفسير لها، ساد وجوم ثقيل، وخيم الصمت على الوجوه المرتعبة، حتى أن السيدة "ب" لم تستطع تحمّل الصدمة فتهاوت مغشياً عليها وسط الذهول والفوضى.

وفي تلك اللحظة المشؤومة اخترق السكون صوت مريع انبعث من ناحية حجرة نوم وريدة، صوت أشبه بصرير السيف حين يشق الهواء، أو كأن شيئاً قد انكسر في أعماق الصمت. انتفض الجميع، وتوجهت الأبصار صوب مصدر الصوت، ثم اندفع القوم إلى الغرفة في هرج وقلق. غير أن سوسنا، وقد اجتاحتها نوبة من الفزع سبقتهم جميعاً، وكأن يداً خفية تقودها إلى قدر مجهول. وما إن اقتحمت الحجرة حتى وقعت عيناها على طاولة صغيرة فوقها بطاقة بيضاء خُطت عليها كلمات بقلم مرتجف، وكأنها كُتبت على عجل، وبيد متهيبة.

امتدت يدها المرتعشة، والتقطت الورقة، ثم أخذت تقرأ، في حين أن أنفاسها اختنقت شيئاً فشيئاً:

"الوداع يا أبي، الوداع يا أمي، وأنتِ يا شقيقتي، لا تبحثوا عني، فلن تعثروا عليَّ. أما أنت أيها البارون دو لينس، فقد حللت وثاقك، فأنت الآن حر، ابحث عن غيري وامنحها سعادتك، وداعاً.

وُقعت الرسالة باسمٍ واحدٍ خطته يد مرتعشة:

"وريدة ب".

والحق أن صاعقة لو نزلت من السماء وضربت فناء الدار بين أيديهم لما أحدثت في قلوبهم من الهلع والاضطراب مثلما أحدثه ذلك المشهد، ولما خلفته في قلوبهم من حيرة وذهول ما خلفه اختفاء وريدة بتلك الطريقة الغامضة التي لا تفسير لها ولا تأويل، وكأن لعنة مفاجئة قد أطبقت على القصر، فسلبت الأرواح فرحتها، وألقت بظلال من الخوف والترقب على

النفوس.
عم الصمت المطبق أرجاء المكان، فانطفأت المشاعل في العيون قبل أن تنطفئ أنوار الثريات، وخمدت أصداء الأهازيج، وسكنت حركة الراقصين كما لو أن الأوتار قد سكتت قبل أن تُقطع، حتى أن الهواء في القاعة أصبح ثقيلاً مشبعاً بكآبةٍ لا تطاق، وكأن جدران القصر نفسها قد انحنت حزناً، وتدلت ستائره حداداً على فرحة أُزهقت روحها في لحظة غدرٍ لا تُغتفر.
أما المدعوون، وقد جف الفرح من وجوههم كما تجف الورود عند هبوب ريح الخريف، فقد راحوا يتسللون واحداً تلو الآخر، ويفرون من المشهد الكئيب، وكأنهم يخشون أن تصيبهم لعنة الفقد، أو أن تلاحقهم شبهة سوء الطالع. أما السيدات والصبايا اللواتي لم يكن قد أتين إلا لطلب اللهو والترويح عن الخواطر، فقد سرت بينهن موجة من الاضطراب، وتملكتهن الحيرة، فأسرعن صوب الباب يتدافعن في ارتباك، يتوجهن لاستقلال العربات، وكأنهن يهربن من شبح ثقيل جثم على صدر المكان، إذ تعذر عليهن أن يحتملن البقاء في دار لفحتها نكبات الدهر، وخيمت عليها غيوم الفقد، فالناس –كما هو معلوم للجميع– لا يألفون بيوت الأحزان، ولا يطيقون المكوث في مواطن الشؤم والكآبة. ويا لها من دنيا متقلبة، لا عهد لها ولا أمان، تتزين بالمودة حين تعصف بها المسرّات، ثم تولي وجهها هاربة حين يحل البلاء، كأنها لم تكن يوماً رفيقة دربٍ ولا أنيسة عهد!
إلا أن مجموعة من الأصدقاء المخلصين الذين لم يكن الوفاء في قلوبهم كلمة تقال بل موقف يُسجل آثروا البقاء قليلاً بعد انصراف الجمع يحدوهم الأمل في التخفيف عن أهل الدار وطأة هذه الفاجعة بحضورهم ومؤازرتهم، غير أنهم ما لبثوا أن أدركوا أن الحزن الذي استوطن القلوب أعمق من أن تواسيه العبارات، وأن الجرح الذي انفتح في الصدور لا دواء له بغير الزمن. وحين أخفقت كلماتهم في تضميد ذلك الألم النازف، وخاب رجاؤهم في تهدئة النفوس المكلومة، استأذنوا مودّعين، وانسحبوا بصمتٍ تاركين خلفهم بيتاً بات كالقبر، لا يُسمع فيه سوى أنين القلوب الكسيرة.
وحين انتصف الليل، لم يبقَ في بيت القنصل إلا البارون وأفراد العائلة، وقد بدا الديوان الكبير في حالة يرثى لها، أثاثه مبعثر، وستائره مقلوبة، وأثر الفرح المنطفئ ملقى في الأرجاء، وكأن الحفل الذي أطل منذ ساعات قد استحال كارثة ثقيلة.
كان البارون جالساً في ركن، غارقاً في صمته، مغمض العينين، ومسنداً رأسه إلى كفه، وقد أسدل الحزن ستاره عليه. وبقربه جلس السيد "ب" يحاول عبثاً أن يبعث في روحه العزيمة، لكن كآبته كانت أشد من أن تذوب في كلمات المواساة.
وفي ناحية أخرى من القصر، حيث اختلط السكون بأنين القلوب المكلومة، جلست السيدة "ب" وابنتها سوسنا تغالبان الدموع، إلا أن الدمع، مهما انهمر، لم يكن ليطفئ لهيب الفقد الذي استعر في صدريهما، بل زادهما وجعاً وانكساراً، كأن كل قطرة منه لم تكن إلا جمرة تحترق بها أرواحهما الحزينة.
وفيما هما كذلك، إذ بالساعة تدقّ الثانية عشرة، فدوى صوتها في أرجاء المكان، وكأنه ناقوس ينذر بليلٍ طويلٍ لا فجر له، أو طبول الحزن تُقرع في موكب الفقد تذكرهم بأن لحظة الخسارة قد حُفرت في الزمن، وصارت جزءاً من ذاكرته التي لا تُمحى. كان لصوتها وقع موجع، إذ لم تكن مجرد عقارب تدور، بل كانت سهاماً تخترق الأرواح، وتنبش الجراح، كأنها تعلن في إصرار أن هذه الليلة المشؤومة لن تُنسى، وأنها ستظل شاهدة على الألم الذي خلفه ذلك الغياب القاسي.
أما البارون دو لينس، والذي وقف متجمداً في مكانه كتمثال من حجر، فكانت بالنسبة إليه نذير شؤم، وكأن كل دقة منها كانت تُشيع حلماً من أحلامه إلى مثواه الأخير. أحس بين طيات رنينها بصوت خفي يهمس في أعماقه يخبره بانهيار آماله، وتلاشي الأماني التي نسجها ورعاها في قلبه، فإذ بها تتبدد أمام عينيه كما يتبدد السراب عند اقتراب الشخص الظمآن. بدت له كأجراس تُقرع في مأتم لا إعلانا عن ساعة جديدة، بل عن عمرٍ ذهب عبثاً، وعن سعادةٍ ضاعت إلى غير رجعة تاركة إياه في مهب الريح لا يدري كيف يستعيد ما قد سُلب منه، ولا كيف يواصل السير دونها في طريق أصبح موحشاً بلا أمل.

الفصل السادس

لو قُدر لك، أيها القارئ الفطن، أن تولج بعد أسبوع من انتشار الخبر إلى أرجاء بعض مخادع دار القنصل "ب" لرأيت رجلاً كهلاً جالساً، حيث تكسو ملامحه سحابة من الحزن، ويعلو قسماته شحوب الكآبة، وكأنه قد تجاوز الخمسين رغم أنه لا يزال في ريعان شبابه. إنه البارون "دو لينس"، الذي أثقلت روحه الفاجعة التي حلت بخطيبته فجعلته رجلاً قد نالت منه الأيام وأثقلته الهموم.

أما الغرفة التي آوى إليها البارون فهي ذاتها التي كانت تعانق أحلام خطيبته "وريدة"، إذ لا تزال على حالها كما كانت ليلة العرس، وكأن الزمن أبى أن يعبث بها، فكل شيء فيها ما زال ساكناً كما تركته الفتاة قبل أن تسير نحو مصيرها المجهول. بدت النوافذ شبه مغلقة يتسلل منها ضوء خافت يضفي على المكان رهبة أشبه برهبة غرف الأموات. وأما الفراش، فرغم تجعد أغطية حريره، لم تمتد إليه يد لترتبه، ولا تزال الوسادة في موضعها تحرسها الذكريات، وعلى مقربة منهما خزانة صغيرة تحوي خفيها وقفازاتها ورداءها الوردي، كأنها لم تبرح المكان قط.

وعلى مدار أسبوعٍ بأكمله، لم يهدأ بال القنصل ولا أهل بيته من خدم وحشم، واستمروا في سعي محموم للعثور على الفتاة الضائعة يسيرون في أزقة المدينة وأطرافها، يتقصون أخبارها في كل ناحية لاهثين خلف خيطٍ واهٍ من الأمل، ولكن عبثاً بدت محاولاتهم، إذ لم يكن للصدى أن يرد عليهم إلا بصمته البارد، ولم يكن للريح أن تحمل إليهم إلا الفراغ الهائل الموحش.

وحين شاع خبر اختفائها، لم يساور الناس أدنى شكٍ في أنها قد آثرت الانتحار مستندين إلى كلماتها الأخيرة التي خطتها بيدٍ مرتعشةٍ على بطاقة وداعها: "من يبحث عني، لن يجد لي أثراً ولا خبراً."

وفي اليوم التالي لاختفائها، رست سفينة روسية في الميناء تتأهب للإقلاع مع حلول الظهيرة. وعندئذ طلب القنصل من إدارة المراكب الروسية البحث بين الركاب، فقد تكون صعدت على متن السفينة، ولكن الجواب جاء قاطعاً: "لم تبارح السفينة الميناء بعد، ومع ذلك، لا أثر للمطلوبة بين المسافرين".

طرق أهل الفتاة كافة الأبواب، وبعثوا التلغرافات إلى المدن السورية والمرافئ القريبة لعلهم يعثرون على خيط يدلهم عليها، لكن الردود جاءت باردة خالية من أي خبر يطفئ نار القلق المستعر في صدورهم، وإذ أرهقهم اليأس، وأضناهم الانتظار، توقّف القنصل عن البحث خشية أن تكشف الحقيقة عن سر أشد وقعاً من الفقد ذاته، في الوقت الذي أطلق فيه الخدم والحراس العنان لألسنتهم ينسجون من الخيال قصصاً أغرب من الأساطير، حيث يرويها كل منهم بأسلوبه، وكأنهم في سباق محموم لصوغ الحكايات.

طلب البارون "دو لينس" الحصول على مفتاح غرفة خطيبته ليجد في أركانها عزاءً وسلواناً يُخفف من عذابه الغائر، وقد أبقى كل شيءٍ كما كان يوم اختفائها، لم يحرك شيئاً، ولم يغيّر ترتيباً، كأنها ما زالت في حجرتها، أو كأن روحها تهمّ بالعودة في أية لحظة لتعيد للحجرة نبضها، ولتملأ أرجاءها بعبق حضورها الغائب.

وقد ألف، كل يوم، الفرار من ضوضاء الحياة إلى تلك الحجرة، فيعتزل الناس وينفرد بصمته لعله يعثر في بقايا الذكرى ما يطفئ لوعته، أو في أشيائها الجامدة ما يبوح بسر اختفائها الغامض. لهج قلبه بالسؤال، وأخذ يناجي كل قطعة أثاث، يستنطق كل ظل، يستقصي كل أثرٍ خلفته محبوبته، بيد أن الصمت وحده كان يردُ عليه ببرودٍ قاسٍ. ومثلما تاه القنصل وزوجته في دروب البحث عن ابنتهما يستنفدان كل سبيل، ظل البارون أيضاً هائماً في متاهات الحيرة، لا يجد بين أمواج الذكرى سوى مرارة الفقد وأشباح الأسى.

أما "سوسنا"، فكان ما ألمَّ بها من اضطراب جراء غياب شقيقتها قد أفقدها النطق، فلا ترفع رأسها، ولا تنبس ببنت شفة، غير أن ملامحها كانت تنطق بأنها وحدها تحمل نصف الخبر، وكأنها مفتاح اللغز الذي عجز الجميع عن فك طلاسمه. ومع ذلك، لم يجرؤ أحدُ على مساءلتها، إلى أن جاء اليوم الذي ضاقت فيه والدتها ذرعاً بالصمت، وتوسلت إليها بحرقةٍ أن تُفصح عن الحقيقة إن كانت على علم بها، فانطلقت عبراتها قبل كلماتها، ثم أطلقت زفرة موجعة كأنها تحمل أوجاع العالم، ثم قالت بصوت يتخلله الحزن العميق، ويُمزقه الألم:

– الويل لي، يا أماه! لقد ماتت شقيقتي فداءً عني، أنا السبب، أنا من جلب لعائلتنا ذلك الحزن الذي أطبق على قلوبنا جميعاً!".

وما إن تفوهت سوسنا بهذه الكلمات حتى انفجرت في بكاء مرير، وتعالى بكاؤها، ثم اندفعت إلى حضن والدتها، وكأنها تحتمي بها من ثقل الحقيقة التي أفصحت عنها. وفي غمرة شهقاتها، استطردت قائلة:

– لقد استولى حب البارون "دو لينس" على قلبي، فكان شوقي إليه كالنار تأكلني في الخفاء توقد روحي وتنهك قواي حتى كدت أهلك بين أنياب الهوى، وبلغ بي العذاب مداه حين حل يوم خطبة أختي "وريدة"، فشعرت وكأنها انتزعت قلبي معها إلى الأبد. لم يكن لدي خيار آخر، ولم أملك جرأة البوح، لكنها رأتني بعين الأخت التي تعي ما وراء الصمت، فشعرتُ أنها قد سبرت أغواري وأدركت سرّ احتراقي.

ثم، في ليلة العرس، وبينما كان الجميع غارقين في بهجة الاحتفال، ونظراتهم تلاحقني، وألسنتهم تعرض عليَّ العون، داهم أختي خاطر مظلم أشبه بقدر محتوم، حيث دفعها إلى فعل ما فعلت، غادرت دون أن يشعر بها أحد، وتسللت إلى حجرتي، وبين أوراقي المبعثرة، وجدت رسالة كنت قد دونتها بخط مرتعش، وقد سطرت فيها ما يلي:

– آهٍ لو أدركت أختي ما يتأجج في صدري من نارٍ لا تهدأ، ولو علمت أنها وحدها القادرة على إخماد لهيبها، لما ترددت لحظةً في التنازل عن حقها. فإن لم تفعل، فالسعادة ستفلت من بين يدي، وستكون هي، شقيقتي العزيزة، سبب شقائي وهلاكي، بل موتي المحتم.

قرأت "وريدة" هذه الكلمات، واستوعبت ما بين سطورها، فأضافت إليها جوابها الأخير، ثم تركتها لي:

"كلا، يا "سوسنا"، لا تموتي من أجلي، بل كوني سعيدة مدى حياتك! لستُ أهلاً لأن أعكر كأس سعادتك، وأعلم أن البارون خُلق لكِ كما خُلقتِ من أجله، فلتنوبي عني في حبه، وكوني له عروساً، فهذه وصيتي لكِ، أو بالأحرى، أمري إليكِ. وضعي في حسبانك أنني، حيثما كنت، لن أجد سلوى إلا إذا تيقنت من سعادتك، وأنك صرتِ بارونة "دو لينس".

شقيقتكِ، "وريدة"

وما إن فرغت الأم من قراءة الرسالة حتى اختلجت حواسها، واضطرب قلبها بين رجاء وخوف، غير أنها تماسكت رغم الحزن الذي بدأ يكسو ملامحها، ثم سألت ابنتها بصوت مرتجف:

– سوسنا، أخبريني بصدق، هل ما زال قلبكِ يطمئن بأن شقيقتك حية، أم أن اليأس قد بدأ يتسلل إلى روحك؟

أجابت "سوسنا"، وقد علا صوتها رجفة غامضة:

– لا أدري، يا أمي، ولكن كلماتها الأخيرة لي، وإصرارها على أن سعادتها لن تكتمل إلا بسعادتي حملت في طياتها رجاءً بأن الحياة لا تزال تنبض فيها. غير أن ما يثير حيرتي هو أنه كيف لقلب خطيبها أن ينصرف إليّ، وهو الذي أنهكه الحزن على فراقها من جرائي؟!

الفصل السابع

وخلال ذلك الشهر، لم يكن في القصر مشهد أبلغ من صورة البارون دو لينس وهو جاثٍ في حجرتها يمرر أصابعه المرتجفة على الأشياء التي مستها يداها، وكأنه يبحث بين خيوط الماضي عن ظل يبدد وحشته. لقد أدرك في قرارة نفسه أنها قد لا تعود، بيد أنه أبى أن يستسلم لفكرة الغياب، فكل زاوية من الغرفة كانت تحاكيه بصمتها، وتخبره أنها حاضرة، بين دفتي كتابها، في أطراف وشاحها المطرز، في الحروف التي خطتها بأناملها، وفي العطر الذي لا يزال يعبق في الأرجاء رافضاً أن يتلاشى كما تلاشت صاحبته.

كان البارون لا يبرح ذلك الموضع إلا حين يشتد به التعب، فيخرج متثاقل الخطى، مثقل القلب، وكأنه يود البقاء في الحجرة إلى الأبد يحرس الذكرى بوفائه، ويعيش مع من رحلت، فقد يظفر بجوابٍ يطمئن به روحه التائهة.

أما سوسنا، فقد اجتهدت أن تضمّد جراح قلبه النازف، غير أن مساعيها ذهبت هباءً منثوراً، إذ كان الأسى قد استبد به حتى صار سجيناً لأوجاعه لا يفارقها لحظة. وبينما كانت الأم ترزح تحت وطأة السر الذي باحت به ابنتها، لم تجرؤ على إفشائه حتى لزوجها القنصل، ولكن حين اشتد عليها ثقل الكتمان، لجأت إليه في نهاية المطاف لعل حكمته وتدبيره يسعفانها في ذلك الموقف العصيب. وما إن وقف القنصل على حقيقة الأمر حتى شرع في البحث عن مخرج من تلك الأزمة المخيمة بظلالها القاتمة على البيت.

حل مساء أحد أيام شهر يناير، فانقشعت الغيوم بعد أن أسدلت السماء ستائر المطر المنهمر طويلاً، وعادت صفحة الفضاء صافية، وانعكست زُرقة البحر الصافية كمرآة على مياهه الهادئة، بينما لاح جبل "صنين" من بعيد، وقد تدثر برداء من الثلج الناصع، في حين أزهرت أشجار اللوز بألوانها المتألقة، وتفتحت زهور الربيع على روابي بيروت، فبدت كروضة عابقة بالحياة والجمال. رأى القنصل في ذلك المشهد فرصة مواتية، فعرض على صهره السفر إلى بلاد اليونان قاصداً أن يشغله بلقاء أصدقائه ويبدد عنه وطأة الحزن، وأن يعيد إلى ابنته سوسنا ما افتقدته من سكينة وراحة. فما كان من البارون إلا أن لبى عرضه، وسرعان ما أُعدت مستلزمات السفر، وسارت السفينة مجتازة أمواج البحر العاتية نحو مرفأ "بيريا".

وما إن وطئت قدما البارون أرض اليونان برفقة عائلة القنصل حتى عادت إليه عافيته واستعاد سكينته، فانقشعت غيوم الحزن التي خيمت على روحه. لم يلبث أن تدفق أصدقاؤه من كل صوب وحدب أفواجاً لرؤيته يحيّونه ويعربون عن تجديد روابط الصداقة، وقد تزامن وصوله مع اكتشاف كنوز أثرية نفيسة من تماثيل ولوحات تحكي تاريخاً عريقاً، فانكب البارون على زيارة المتاحف متفحصاً تلك التحف المهيبة، ومستغرقاً في تفاصيلها، ثم كتب عنها مقالات علمية بعناية فائقة، وأرسلها إلى المجلات المتخصصة، وقد وجد في ذلك العمل الدؤوب عزاءً ومهرباً من همومه.

وفي واقع الأمر لم يكن البارون غريباً عن تاريخ أثينا ومعالمها الضاربة في القدم، فقد دليلاً لعائلة القنصل يقودهم في أزقتها العتيقة، ويكشف لهم أسرارها. بدؤوا رحلتهم بهيكل الإلهة "مينيرفا" المعروف باسم ."البارثينون"، ثم أخذوا يتجولون بين الأبنية الأثرية واحداً تلو الآخر، فيما كان البارون يصف لهم هيئة المدينة مشبهاً إياها بقرص حلوى شاسع مقسم إلى أربعة أجزاء، حيث تتقاطع فيها طرق "إيول" و"هرميس"، ويقع في قلبها القصر الملكي الذي أنفقت عليه خزائن الدولة ثمانية آلاف من الدراخمات، ورغم ذلك بدا أشبه بثكنة عسكرية أو مستشفى قديم لا يضفي عليه بهاءً سوى الحديقة الوحيدة التي يجد فيها سكان المدينة ملاذهم في ظلها.

وعند وصول البارون وعائلة القنصل إلى أثينا كانت المدينة تعج بالحماسة، وكأنها على صفيحٍ ساخن، حيث احتشد الجنود في الساحات يستعرضون أنفسهم يومياً أمام العامة، في حين أن المقاهي ضجت بأصوات المشحونين بالحماس الذين يقرؤون الصحف بصوت مرتفع، ويهتفون مطالبين بإعلان الحرب موجهين انتقاداتهم اللاذعة لرئيس الوزراء "تريكوبيس" المتهم بالجبن والتخاذل.

وفي غمرة ذلك المشهد الصاخب، لم يتمالك القنصل نفسه عن الضحك، وهو الضابط المخضرم، إذ راعه ما رآه من

فوضى عارمة وسوء تنظيم في الجيش اليوناني، فالملابس الرسمية بدت متسخة، والترتيب معدوم، ناهيك عن العدد الهائل من الضباط مقارنة بالجنود، وأغلبهم لم يكونوا سوى شبان حديثي التخرج من الأكاديمية العسكرية، غير أنهم رغم حداثة عهدهم كانوا يتباهون بأزيائهم المبهرجة، وقبعاتهم الواسعة المستطيلة، وأطواقهم الصفراء العريضة، في مشهد أقرب إلى عرض للأزياء منه إلى ميدان عسكري.

بدا القنصل غارقاً في بحرٍ من التأملات تتلاطم في ذهنه أمواج الدهشة والاستغراب متسائلاً في حيرة: "كيف لهؤلاء الضباط الذين تفوح من ملابسهم روائح العطور النفيسة، وتتدلى خصلات شعرهم في تكلف أشبه باستعداد لعرس لا لمعركة أن يصمدوا في وجه أعدائهم؟ أيظنون أن كثرة الكلام واستعراض الثروة والجاه يكفيان لنيل النصر؟!"

أما البارون، فقد لفت انتباهه مشهد فرقة "المشاة الخفيفة"، فأبدى إعجابه العميق بأزيائهم الوطنية الفريدة، تلك التي تعكس تراث اليونان العريق: سراويلهم ناصعة البياض، وثيابهم المزركشة التي تنطق بألوان الفخر، ونعولهم حمراء اللون ذات الرؤوس المعقوفة التي تتدلى من أطرافها أقراط زرقاء، وجميعها تفاصيل تنم عن عناية فائقة بالهيئة والمظهر. لم يكن ذلك الزي مجرد لباس عسكري، بل بدا رمزاً للهيبة والشرف لدرجة أن الملك أوكل إليهم مهمة حراسته الشخصية مكافئاً إياهم بزي بلغت كلفته ثلاثة آلاف فرنك لكل فرد، وكأنما كان يرغب في أن يجعل منهم تمثالاً حياً للمجد يتحرك عبر الأرض في موكب من الكبرياء والرفعة.

وعندما خلت العاصمة من أي مشهد يلفت نظر سياحنا أو يروي عطش أعينهم للجمال، انطلقوا يمتطون جيادهم إلى الضواحي باحثين عن المتعة في أحضان الطبيعة والتاريخ، فزاروا "ماراثون"، وأطلال "دلفي"، و"أوليمبيا"، أما شارل، فقد أُوكلت إليه مهمة تنظيم هذه الرحلات وإدارتها، فكانت خبرته الواسعة وأسلوبه الفني في التنسيق يضفيان على كل رحلة ألقاً وسحراً، حيث اجتمع فيها المتعة والفائدة، فلم تكن مجرد جولات، بل لوحاتٍ نابضة بالحياة.

وكأن الحياة قد ألبسته حُلة جديدة بالكاد يشعر بها، إذ تجلت في تلك الديار العريقة بتاريخها المجيد، فكم تهيج في النفس مشاعر التأمل العميق حينما تطأ الأقدام معاهد اليونان وأطلالها الشامخة فتوقظ في قلب العالِم نزعة الاستقصاء والتدبر.

فلا عجب إذاً إن رأينا "شارل" منصرفاً عن كل شاغلٍ إلا سبل العلم، حتى صار اسم "وريدة" يُذكر نادراً.

لقد عاد وجهه يشرق بالبهجة، وملامحه تنطقُ بالرصانة والثبات، وهي صفات تليق بأرباب السياسة وأهل الحنكة. لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد حظي "شارل" بدعوة كريمة من الملك "جورج" والملكة "أولجا" لحضور الحفلات الباذخة التي أقيمت في القصر الملكي، فاستُقبل بحفاوةٍ ورقة نظراً لما علمه الملك والملكة من مآسيه المحزنة. وهكذا، أخذت جراح قلبه تتعافى رويداً رويداً دون أن يعي اللحظة التي بدأ فيها ذلك، وكأن روحه وجدت في هذا العالم الجديد بلسماً يداوي أوجاعها ويُعيد إليها السكينة المفقودة.

الفصل الثامن

راودت البارون، في خاتمة جولاته في اليونان، فكرة أن يشد الرحال إلى "ميتيورا"، تلك الأديرة المعلقة بين السحاب، والمشيدة فوق قمة منطقة "تساليا" الساحرة بجمالها الأخاذ. وما إن بسط فكرته أمام رفاقه حتى لامست أوتار الشغف في قلوبهم، فاستحسنوا جميعاً ذلك المقترح، واستعدوا للرحلة بلهفةٍ تتقد شوقاً وتوقاً.

وحين حلّ منتصف شهر مارس، توجهوا إلى مرفأ "بيريا"، ومن تلك البقعة أبحرت بهم السفينة تشق البحر متجهة نحو رأس "سونيو"، حيث حطوا رحالهم لأول مرة في "أرجاستيريا"، موطن مناجم "لوريوم" الشهيرة. وعندئذ تجلت المدينة في طابعها الهمجي، حيث علت معاملها مداخن شاهقة تنفث سُحباً كثيفة من الدخان، كأنها تلبد الأفق بستارٍ داكن لا يختلف عن سماء البلاد الشمالية التي لا تكاد تخلو من غيمٍ ومطر. والعجيب أن هذه الأرض تقع في الشرق، ومن المفترض أن يكتسي أفقها زرقة صافية تبهر الناظرين برونقها الرقراق، كما هو شأن معظم جزر اليونان، لكنها بدت غارقة في ظلال الدخان.

واصلت السفينة سيرها تشق الخليج الفاصل بين البر اليوناني وجزيرة "أوبي"، ذلك الخليج الذي يتسع في بدايته، ثم يضيق بشكل تدريجي وصولاً إلى مدينة "كلسيس"، حيث يلتقي الشاطئان بجسرٍ دوار، وفي تلك البقعة تبدى لهم مشهدُ عجيب من المدّ والجزر، حيث يندفع التيار المائي للحظةٍ من الشمال إلى الجنوب، ثم ما يلبث أن يتراجع إلى الوراء في حركة لا تهدأ، وكأن البحر في صراعٍ مع نفسه.

وأخيراً، رست السفينة عند "فولو"، وهو أحد مرافئ تساليا البحرية، تلك المدينة التي ارتبط اسمها بأحداث الحرب الأخيرة بين الدولة العثمانية واليونان، وكانت بمثابة بوابة العبور إلى الولاية بأسرها. غير أن البارون ورفاقه لم يطيلوا المكوث فيها، فما لبثوا أن استقلوا القطار متجهين إلى "لاريسا"، ومنها تابعوا رحلتهم حتى وصلوا، في اليوم التالي، إلى بلدة "كالاباكا"، المحطة الأخيرة التي ينتهي عندها مسار السكك الحديدية، عند سفح صخور "الميتيور"، وعلى مقربة من حدود الأراضي العثمانية.

وما إن وطأت أقدامهم تلك الربوع حتى انكشف أمامهم مشهدُ يأسر العيون ويسحر العقول؛ ففي تلك البقعة خلف "كالاباكا"، وعلى امتداد ضفاف نهر "بينايوس"، انتصبت صخورُ عملاقة شاهدة على تحولات الزمن وعجائب الطبيعة، فقد شكلتها الأزمان، ونقشت عليها الرياح والمياه المتدفقة رسوماتٍ بديعة أشبه بلوحاتٍ أبدعتها يد فنانٍ بارع.

وفوق تلك الروابي الشامخة، عانقت السماء أديرة معلقة عُرفت باسم "الميتيور"، أي "الصوامع المشيدة في الهواء"، فهي ليست سوى أعشاشٍ للنُسور قائمة على قممٍ وعرة، لا تُبلغها إلا بعد عناء، وكأنها حصونُ سماوية تعيش فيها الأرواح النقية في عزلةٍ مطلقة عن صخب الحياة وأهوالها.

ومن الجدير بالذكر أن من أراد بلوغ تلك الأديرة المعلقة بين السماء والأرض فعليه أن يتجرد من الخوف، ويستسلم للمجهول، إذ لا سبيل إليها إلا عبر قفة هزيلة تتأرجح في الفراغ مشدودة إلى طرف حبلٍ طويل يشده الرهبان بأنامل الزمن، فيرفعون المسافر رويداً رويداً باتجاه السماء بوساطة بكرةٍ قديمة تئن تحت وطأة السنين، لكنها ما زالت تؤدي وظيفتها في أديرة تساليا "الهوائية"، كما لو أن الزمن قد توقف فيها.

وحين شرع رفاقنا في الصعود بهذه الطريقة العجيبة تملكهم الدوار، فقد بدا الجرف الذي تسلقوا جداره شاهقاً يلامس عنان السماء مرتفعاً عن الأرض بما يقارب مئة متر، ونظراً لأن ثقل الواحد منهم لا يكفي لتثبيت الحبل في خطٍ عمودي مستقيم، فقد بدؤوا يتأرجحون مع نسائم الهواء، فتارة يعلون بسرعة مفاجئة، وتارة أخرى يميلون يمنةً ويسرة، كما لو كانوا أوراقاً تتقاذفها الرياح إلى أن باغتهم الصخر فارتطموا به بقوة، وكأن القدر يلهو بأعصابهم قبل أن يكتب لهم النجاة.

وما إن بلغوا مشارف القمة حتى أطل راهب، وقد أمسك بيده خشبة طويلة يحاول بها أن يجذبهم إليه، غير أنه كان حريصاً ألا يسقط، فأخذ يتعامل معهم متوخياً أقصى درجات الحذر والحيطة، ولعل التعب أنهكه فعاد إلى مقره لينال قسطاً من الراحة، في حين أن المسافر المسكين ظل معلقاً في الهواء يتمايل بين السماء والأرض رهن أهواء الريح، وفي انتظار قوة

جديدة تنتشله إلى بر الأمان.
بدا صعودهم مرهقاً طويلاً بطيئاً إلى حد الإنهاك، وكثيراً ما كادوا يصطدمون بالصخر، لكنهم بلغوا القمة في نهاية المطاف، بعدما أقبل ثلاثةٌ من الرهبان المسنين بأجسادهم الضئيلة الهزيلة، ووجوههم التي حفرتها الأيام، وظهورهم التي أحنتها السنون. استقبلوهم بمصافحة دافئة، وحفاوة نابعة من قلوب عامرة بالإيمان، غير أن حرارة اللقاء ما لبثت أن خفتت حين وقعت أعينهم على النساء بين الضيوف، وحين أدركوا أن زوارهم لا ينتمون إلى نفس طائفتهم الدينية، فبدا الترحيب مشوباً بشيء من الحذر والفتور.
وما إن سلم "شارل" إلى رئيس الرهبان رسائل التوصية التي حصل عليها من مسؤول الشؤون الدينية ومطران أثينا حتى أقبل الرهبان عليه ببشاشة واحتفاء غامرين إياه بمظاهر الوداد وأواصر المحبة الصادقة.
أما "شارل"، كان في سرور لا يُخفى، وقد غمره الشعور بالعظمة وهو يتأمل أثر ذلك التقدير والتكريم في نفوس رفاقه. راح يجوب أرجاء الدير مستعرضاً معاهده، تارةً مستفسراً الرهبان عن الأحداث مستطلعاً ما غمض عليه، وتارة يتأمل ما يطوق بالدير من مشاهد تأسر اللب لا تكشفها العين المجردة إلا لمن أرهف حسّه. وسرعان ما أسَر بكلامه العذب وفطنته الواسعة قلوب الرهبان الذين استمالتهم فصاحته في اللغة اليونانية وسلامة حسه، فأحاطوه بود بالغٍ وانشراحٍ تامٍ.
وكحرص على إبداء المودة قدم لهم من لفائف التبغ التي كانوا مولعين بتدخينها، فهي المتعة الوحيدة التي أباحوها لأنفسهم وسط حياة الزهد والتجرد. وبينما كان "شارل" يطوف بأروقة الدير وقع بصره على مخطوط يوناني قديم، فأسرع به إلى "سوسنا" مشاركاً إياها ما حواه من رسومٍ ونقوشٍ أثريةٍ آسرة.
وحين أرخى الليل سدوله، دعا الرهبان ضيوفهم إلى مائدة العشاء، فكان طعامهم الزيتون والجبن وبعض الثمار المجففة، وفي أثناء تناول الطعام استغرق راهب وقور في سرد أخبار البلاد وأحداثها، فأنصت البارون بكل جوارحه مأخوذاً بكل ما تناهى إلى مسامعه.
وفي واقع الأمر تطرق الحديث إلى "إيتافروس"، ذلك الغول المرعب الذي قيل إنه لا يقتات إلا بلحوم البشر، والذي يقدم إليه كل شهر فريسة يلتهمها بلا أدنى شفقة أو رحمة، وقد استمر الراهب في سرد قصته، وراح يروي كيف أتى الدور على أسرة الملك، وكان لزاماً عليه أن يختار إحدى ابنتيه التوأمين، "صوفيا" أو "إلبيس"، ليقدمها قرباناً للوحش الكاسر. وحين أُجريت القرعة وقعت على "إلبيس" التي كانت وقتئذ مخطوبة لأمير من أمراء إبيروس، فأطبق اليأس على قلبها حتى كادت تستسلم لقدرها المحتوم.
ولكن حين رأت "صوفيا" حال شقيقتها هاجت في دمها نخوة الشجاعة، واتخذت قراراً يفوق الأبطال في شجاعته. وفي ليلة تقديم الفريسة، تسللت من قصر أبيها، وسارت عبر الدروب الوعرة حتى بلغت المغارة المختبئ فيها الغول، غير أنها –رغم جرأتها المعهودة –ارتعدت فرائصها حين اقتربت، وخفقت نبضاتها فزعاً حتى شحب لونها وكأنها خيال يتهادى في الظلام الدامس.
وفي تلك الأثناء شحب وجه البارون، وراح قلبه يخفق خفقاناً ملحوظاً، فلمح القنصل ما أصابه، وسارع إلى الادعاء بأن صاحبه قد ألمت به وعكةٌ، فنهض عن المائدة، ثم تبعه الجميع يكسو القلق ملامحهم، وهم يتبادلون النظرات الحائرة.
ومع بزوغ الفجر وانبثاق أول خيوط النور، غادر رفاقنا دير القديس "برلعام" متجهين إلى بلدة "فارسالا"، حيث تعانق الأرض ساحة الوغى التي خُلدت في الذاكرة، مسرح المعركة العظيمة بين يوليوس قيصر وجيش بومبيوس. وقد أخذ البارون –بعلمه العميق بالآثار القديمة– يشير إلى مواضع الأحداث ويقص عليهم تفاصيلها كأنما استعاد الزمن مجده أمام ناظريه.
وبينما كان يسرد وقائع التاريخ لوحظ للجميع أن الطمأنينة قد عادت إلى نفسه، فغاب عنه الاضطراب الذي ألمّ به في اليوم السابق حتى خُيل لمن حوله أنه لم يمر بأي توتر أو قلق. ومع انتهاء جولتهم، شدوا الرحال عائدين إلى "أثينا" عبر مدينتي "لاريسا"، و"جولس"، وأذهانهم لا تزال مشغولة بصور الماضي العريق.

الفصل التاسع

عندما وصلوا إلى أثينا، وجد البارون غلافاً بريدياً في انتظاره فبادر بفضه على عجل، وكأن قلبه يستشعر أهمية ما بداخله. وما إن وقعت عيناه على محتواه حتى تجمدت ملامحه بين الذهول والصدمة، فقد حملت إليه وزارة الخارجية نبأ تعيينه سفيراً معتمداً لدى حكومة بوخارست. وللحظة تلاشى ضجيج المدينة من حوله، وغرق في تأمل المفاجأة التي قلبت مسار حياته بين عشية وضحاها.

ومع أن المنصب كان رفيعاً والمكانة سامية، لم يتردد البارون لحظة في اتخاذ قراره. ودون أدنى تردد أو تراجع، سارع إلى تقديم استقالته ممتناً للثقة التي أولته إياها حكومته، لكنه أوضح في خطابه أنه قد آثر أن يطوي صفحة السياسة ومناصبها إلى الأبد.

لقد وجد في أسرة "ب" دفئاً لم يعهده من قبل، فقد احتضنته مثلما تحتضن الأم ولدها، بل عاملته كأحد أبنائها دون تمييز. وإزاء هذا الحب الخالص، لم يكن أمامه سوى قرار واحد: العودة إلى بيروت. هناك، حيث الهدوء والعزلة، حيث الذكريات التي لم تفارق خاطره يوماً، قرر أن يبدأ فصلاً جديداً من حياته بعيداً عن أعباء السياسة وصخب المناصب.

وحين بلغ نبأ قراره إلى أسرة "ب" غمرها التأثر بصدق مودته ووفائه، فزاد تعلقها به حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ منها، وكأنه الروح التي تنبض في الجسد، لا غنى لها عنه ولا مهرب.

لقد أحبته تلك الأسرة منذ زمن كحب الآباء لأبنائهم نظراً لما كان يتحلى به من صفات نبيلة وفضائل فريدة، وللتو فقد تعزز ذلك الحب بما أضفاه عليه الأمل بمصاهرته، بل إن القنصل وزوجته أصبحا يعلقان على ذلك الارتباط خير أسرتهما، ورغد عيشهما، وسعادة مستقبلهما.

وأما "سوسنا"، فقد كبر حبها له يوماً بعد يوم متغلغلاً في أعماق قلبها حتى امتزج بمشاعر التوقير والإجلال، فقد رأته في ذروة الكمال الإنساني صورة ومثالًا حيًّا للمروءة والنبل، بل إنها، كلما لامست روحه الرفيعة، أحست، وكأنها ترتقي معه في مراتب الصلاح والفضيلة، فيتولد في قلبها طموح جديد لم يكن لها من قبل، طموح يتمثل في أن تكون نده في الفضل والكمال، فتسير إلى جانبه، وليس خلفه، في درب المجد والسمو.

أما البارون، فقد انغمس في اهتماماته بالأبحاث والآثار القديمة مستغرقاً في صفحات التاريخ التي يجد فيها عزاءً لوحدته. غير أن سوسنا، بملازمتها اللطيفة وأدبها الجم، تسللت إلى عالمه بصمت ورفق حتى اعتاد النظر إليها مثلما يتطلع إلى ملاك يفيض من يديه ندى العزاء والأمل.

انتابته الدهشة الغامرة، فقد بدأ يستكشف فيها صورة حية لخطيبته الراحلة "وريدة"، وكأن القدر أعاد إليه ملامحها في هيئة جديدة لدرجة أن شحوب وجهها بدا كأنه امتداد لروحه الغارقة في الحزن والأسى، فكان كلما أصغى إلى حديثها انتابه إحساس بالرضا والسكينة، وكأن كلماتها تسكب في قلبه سلوى لا تضاهى تداوي جراح الماضي بصوتها العذب وحضورها الدافئ.

كان البارون كثير التردد في قبول الدعوات إلى الحفلات والنزهات التي ينظمها الأصدقاء، وكأن قلبه لا يزال يرزح تحت وطأة الأحزان. بيد أن سوسنا، برفقها المعهود ولطافة أسلوبها كانت تتدخل بحنوّ وإصرار، فلا يملك إلا أن يرضخ لإلحاحها، إذ لم يكن ليرفض لها طلباً.

وهكذا، بعد أن قضى ذلك الأب الكريم قرابة الأربعة أشهر في عاصمة اليونان مستنشقاً هواءً جديداً، مجدداً روحه المنهكة، ومستعيداً لمحات من الطمأنينة، فقد حان وقت الرحيل. غير أن قلبه وقلب زوجته لم يكونا كما كانا عند قدومهما؛ فقد لامسهما شيء من العزاء والسلوى، بل لاح في عينيه بريق أمل جديد، وذلك حين رأى شارل وسوسنا يسيران جنباً إلى جنب متكاتفين يتقدمان صوب السفينة التي ستشق بهما عباب البحر، في طريقهما إلى بيروت، حيث ينتظرهما فصل جديد من الحياة يملؤه الرجاء والمستقبل الواعد.

الفصل العاشر

حين أبحرت السفينة "الزُهرة" في شهر يونيو كان البحر ممتداً كمرآة صافية لا يعكر صفوها سوى تجاعيد طفيفة يعقدها النسيم العابر، وكأن الطبيعة نفسها قد تواطأت لتجعل الرحلة هادئة وسلسة. وعلى الرغم من أن وصولها إلى بيروت قد تأخر نصف نهار–كما هو شأن جميع سفن شركة "اللويد" النمساوية– إلا أن الضباط المسؤولين عن الرحلة أظهروا من الحكمة والتروي ما جعل الإبحار مثالياً، فقادوا السفينة بروية وهي تجتاز جزر الأرخبيل اليونانية متهادية عبر الرؤوس والخلجان الممتدة على سواحل "إزمير" و"كرمانيا"، و"سوريا".

وأخيراً، حين أطلت السفينة على شاطئ بيروت كانت الراية التي ترفرف فوق ساريتها تعلن بوضوح أن على متنها قنصلاً أو أحد رجالات السياسة، وكأن البحر نفسه بات شاهداً على رحلة لم تكن مجرد انتقال من مرفأ إلى آخر، بل عبور إلى فصل جديد من القدر.

كان الوقت وسط النهار، والشمس لا تزال تلهب الأرض بوهجها المحرق، وتصب نارها على المدينة التي بدت وكأنها تتلوى تحت سياط القيظ المستعر. بدا الهواء راكداً يثقل الأنفاس يلتف حول الأجساد كعباءة من جمر، ولا يبدده سوى نفحات خافتة تنسل من الممرات الجبلية في لبنان، لكنها لا تلبث أن تخمد تحت قبضة الحر اللاهبة حتى يخال للناس أنهم يستنشقون ألسنة لهب لا نسائم هواء.

بدت السماء صافية، غير أنها ملتهبة بنار القيظ، حيث تمتزج زرقتها بسرابٍ متراقص حتى يتوهم الناظر أن الأفق يشتعل، وأن ألسنة اللهب ترفرف بين السماء والأرض. بلغت الحرارة ستاً وثلاثين درجة في الظل، حيث تتصاعد منذ الصباح كأنها تُعلن عن يوم نادر القيظ لا رحمة فيه ولا هوادة.

أما البحر، فقد بدت صفحته كلوح فولاذي مصقول تعكس أشعة الشمس المحرقة في ومضات قاتلة، وكأنها سهام نارية تومض ثم تنفذ في العيون فتُصيبها بالعمى، وكأن الطبيعة قد تآمرت مع القيظ لتجعل كل ما حولها لهيباً مستعراً.

وهكذا، وقفت بيروت، تلك الجنة الخضراء، فريسة للحر اللاهب مستسلمة منهكة لا تجد مأوى سوى الرمال المحترقة التي أحاطت بها من كل صوب.

أما على الشاطئ، فقد اصطف الحراس المسلحون منذ شروق الشمس متشحين بثيابهم الرسمية المزركشة بالذهب في مشهد بهي يشي بالفخامة والرهبة، حيث تقدموا موظفي القنصلية وجمعاً كبيراً من الأصدقاء والمترقبين، وتعلقت أنظارهم جميعاً بأفق البحر يترقبون بلهفة قدوم السيد "ب".

وعلى مهلٍ ووقار، تقدمت السفينة "الزُهرة" في عرض الميناء كعروس تخطو صوب عرشها حتى ألقت مراسيها برفق، وكأنها تسدل الستار على فصلٍ من الترحال لتفتح آخر يزهو باللقاء المنتظر.

بدأت الإجراءات الرسمية المعتادة، وتسللت لحظات الترقب بطيئة يثقلها الشوق ويطيلها الانتظار، في حين أن جميع الأعين تراقب السفينة، وكأنها تفتش بين جدرانها عن طيف المسافر العزيز. وما هي إلا برهة حتى اندفعت القوارب صوبها بخفة وحماس، حيث تعلقت بأطرافها كما لو كانت أيدي ممدودة بالترحيب تستعجل اللحظة التي طال اشتياق القلوب لها.

وهناك، تحت الشمس الحارقة، تصافح الأحبة وتعانق الأصدقاء، وتبادلت الألسن عبارات التهنئة. بدا وجه القنصل العام مشرقاً بالسرور والانشراح تقطر قسماته لطفاً ورقة، وحتى البارون نفسه، رغم ما يختلج في قلبه من مشاعر وهواجس، لم يستطع إلا أن يبادلهم الابتسام.

وبعد لحظات من اللقاء الحار، انطلق الجميع قاصدين دار القنصلية، حيث تنتظرهم بداية جديدة في رحلتهم المديدة.

كانت الأم، ببعد نظرها وحسن تدبيرها، أول من وصل إلى الدار، إذ عزمت على أن تتخذ ما يلزم من احتياطات تصرف بها نظر خطيب ابنتها عما قد يثير شجونه، ويبعث في نفسه الذكرى والأسى. وما إن وطأت قدما البارون عتبة الدار حتى طلب زيارة حجرة "وريدة" محتفظاً بمفتاحها بين يديه كأنه رمز لما تبقى له من ماضٍ زائلٍ، وقد لبى الجميع طلبه برقة وكياسة، وأخذ بيده القنصل مرافقاً إياه برفق في هذه الزيارة الحزينة.

عندما وقع نظر "شارل" على الباب الموصد بإحكام أحس بالطمأنينة، وأشاد في سره بحسن صنيع مضيفه واحترامه لرغبته، وقد تمتم بينه وبين نفسه قائلاً: "ها هو مسكني، لم تمتد إليه يد، ولم تعبث به الأيام، سأجد فيه بقاياها العزيزة كما تركتها حين نظرت إليها آخر مرة."

ولكن ما إن دفع الباب ليفتحه حتى توقف فجأة مرتداً إلى الوراء، وقد اعترته دهشة مباغتة، بل بدا كمن أصابه برق خاطف أو صاعقة مزلزلة. لقد توقع أن يجد الحجرة على حالها تحتفظ بين جدرانها بآثار الماضي كما غادرها، لكنه وقف أمام مشهد لم يكن في حسبانه، فإذ بالغرفة نظيفة مرتبة يشع منها رونق غير مألوف، وكأن يداً خفية قد مرت بها فبدلت ملامحها دون أن تمحو الذكريات.

تنهد البارون بعمق، وانطلق يلوم القنصل معاتباً، غير أن رفيقه هدأ من روعه بكلمات رقيقة سكبت في نفسه بعض السكينة، ونثرت في قلبه قبساً من الطمأنينة. راح يجول بنظره في أرجاء الغرفة متفحصاً آثارها، فتيقن أن يداً رقيقة قد مست كل شيء بعناية، وكأنها أرادت أن تضفي على الموضع لمسة حياة رغم الموت الذي يخيم عليه. بات كل شيء نظيفاً متناسقاً يلمع تحت ضوء الشمس المتسلل من النافذة، لكن فؤاده ظل يبحث عن شيء واحد..

راح يفتش بعينين مضطربتين عن الخفين الأحمرين، عن القفازات المطرزة، عن تلك الأشياء الصغيرة التي كانت تزخر بأنفاسها وتنطق بوجودها، ولكن دون جدوى، وكأن الزمن قد محا بصماتها ومسح أثرها من الحجرة، وعندئذ أسلم قلبه للحزن، واستسلم ليأس مرير، ثم ألقى بجسده المنهك على مقعد قريب مُثقلاً بأنفاس الذكرى، ومخنوقاً بصمت الأشياء التي غدت بلا روح.

وفجأة، وسط ذلك السكون المشبع باليأس، تسلل حفيف خفيف من إحدى زوايا الحجرة، كأن الهواء يهمس بسرٍ دفين. رفع رأسه ببطء تغمره دهشة وذعر، فإذ بالستائر تزاح برفق، وكأن يداً خفية تعبث بها، ليتجلى من خلفها مشهد لم يكن في الحسبان.

ها هي "سوسنا" تقف متوشحة بثياب أختها الراحلة، وفي قدميها خفاها الأحمران. بدت كأنها طيف حي في ضوء الغرفة الخافت، صورة ناطقة من "وريدة"، وكأن الفقدان قد انهزم، والموت قد عاد عن قراره لتعود الحبيبة من عالم الموتى إلى عالم الأحياء.

انتابه الذهول، وانعقدت أنفاسه في حلقه، ثم هتف دون وعي: "وريدة! عزيزتي وريدة!" واندفع صوبها غارقاً في لوعة الحنين، ثم احتضنها كأنما وجد روحه التائهة، لكنه ما إن لامسها حتى خارت قواه وسقط بين ذراعيها فاقد الوعي غير قادر على التفوه بحرف آخر.

أسرع مضيفوه إليه يتداركون أمره بلهفة وحنوٍ مشوبٍ بالقلق، ويبذلون قصارى جهدهم لإفاقته وتهدئته محاولين انتشاله من دهشته الغامرة. في تلك الأثناء، بقيت الغرفة غارقة في صمتها شاهدة على لحظة امتزج فيها الحاضر بالماضي، واختلط فيها الحلم بالواقع، لحظة توهم فيها البارون أن الموت قد رق لحاله، فرد إليه من هام بها عشقاً.

الفصل الحادي عشر

في مساء أحد أيام الخريف، كانت الشمس عند مغيبها تلقي بآخر أنفاسها الذهبية على بيروت فتكسو قمم لبنان بثوبٍ بهي من ألوان الورد والأرجوان، وكأن الطبيعة أرادت أن ترسم وداعاً شاعرياً لذلك اليوم. أما في المرفأ، فقد كانت السفن الشامخة تهتز على سطح البحر، حيث تتمايل أطرافها بفعل الرياح الشمالية، وكأنها تستعد لرحلة جديدة أو تستسلم لأمواج القدر.

وفي واقع الأمر فإن كل من أطلق بصره في تلك المشاهد الأخاذة، وجد نفسه متحرراً من هموم الحياة، متأملاً في عظمة الخالق، مستشعراً جلال ذلك الكون وما أبدعته يد القدرة فيه من جمال وسحر.

توقفت مركبتان عند مدخل بيت السيد "ب"، وفي الأولى جلس القنصل العام إلى جوار زوجته التي كانت لا تزال مرتدية ثياب الحداد، حيث أحاط بهما خادم وجارية، بينما في الأخرى، صعد رجلكهل، غائب الرشد، يبدو وكأنه مصاب بمس من الجنون. جلس بجواره طبيب، وإلى جانبه فتاة يتوارى امتقاع وجهها خلف برقع أسود. كان ذلك الرجل المبتلى في عقله هو البارون "دو لينس" بشحمه وبلحمه، أما الفتاة، فلم تكن سوى "سوسنا"، ابنة القنصل "ب."

ومن الجدير بالذكر أن شارل حين رأى "سوسنا" متزينة بثياب خطيبته الراحلة "وريدة" أصيب بذهول أطبق على عقله فغاب عن رشده، وجُن جنونه حتى استعصت حالته على كافة وسائل العلاج التي بذلت في بيروت طوال شهرين.

وحين نفدت الحيل وضاقت السبل بالقنصل، وأيقن ألا شفاء يُرجى له في بيروت قرر أن ينقله إلى فيينا يحدوه الأمل في أن عباقرة الأطباء النمساويين قد يفلحون فيما أخفق فيه غيرهم، ويعيدون إليه عافيته التي تتآكل تحت وطأة الألم واليأس.

وعند مغيب الشمس، أبحرت السفينة في سكونٍ مهيب يرافقها نسيم رخيم وبحر هادئ الصفاء. مضت الرحلة بانسيابٍ وهدوء حتى رست في أواخر نوفمبر على شواطئ فيينا.

في ضاحية "هيتسنج"، حيث تمتزج روعة الطبيعة بجلال العمران، وعلى مقربة من حديقة الصيد الإمبراطورية، امتدت جادة مهيبة تحف بها أشجار السنديان الباسقة شامخة كأنها حراس الزمن، حيث تشابكت أغصانها في عناق أزلي، فظللت الطريق بوشاح من خضرة وارفة. وحين يبلغ الناظر نهايتها تنكشف أمامه للتو بقعة من الحدائق الغناء تتوسطها بحيرة تتمايل موجاتها بلطف تحت أنفاس النسيم العليل، فتنعكس على صفحتها صورة قصر أبيض يبدو وكأنه نسج من ضوء القمر، حيث يفيض بهاءً وهيبة، ويطل على تلك الجنة الطبيعية كتحفة تتناغم فيها روعة الفن وسحر الطبيعة.

وحول هذه البحيرة انتشرت أشجار باسقة عتيقة الجذور، حيث تمتد ظلالها الوارفة كأنها أذرع الزمن محتضنة الأرض بحنو مهيب. وفي رحاب تلك الأشجار انبسطت الحقول الواسعة يكسوها بساط من خضرةٍ مخملية، وتتخللها بيوت صغيرة قرمزية الأسطح تنثر لمساتٍ دافئة من الألفة والسكينة، بينما تقف منازل الاصطياف المتناثرة في زهوٍ متواضع، وكأنها أحلام بيضاء تستريح في أحضان الطبيعة.

كانت شمس أواخر نوفمبر، وقد غسلت وجهها من كآبة الغيم، تنثر أشعتها الذهبية بين أغصان الأشجار التي لا تزال حاملة على كاهلها بقايا أوراقٍ مصفرة بدت وكأنها ذكريات خريفٍ قديم، حيث لامستها أنامل الرياح الشمالية فتموجت وتجعدت، وتراءت كصفحات كتابٍ قديم حمل في طياته حكاية وداعٍ هادئ وحزين.

في ذلك القصر العتيق، والذي كان يوماً يعج بأنفاس الأجداد وأصداء الأمجاد الخالدة، حلَّ "شارل دو لينس" ضيفاً، لكنه لم يكن كسائر الضيوف؛ فقد جاء مثقلاً بأعباء السنين، مرهقًا بأحزانٍ أبت الأيام أن تخفف وطأتها حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من ملامحه الحزينة. بات شبيهاً بطيفٍ هائم، ذابل القسمات، فقد خف وهج عينيه، وتلاشى رونق شبابه فغدا شبحاً باهتاً لمن عرفه يوماً متقداً بالحياة متألقاً كزهرة ندية تتراقص على أنغام الربيع، فإذ به اليوم صفحة مطوية من كتاب الزمن، حيث يروي بصمته أكثر مما تبوح به الكلمات.

اعتاد شارل أن يقضي نهاره مستلقياً على مقعدٍ في غرفته شاحب الوجه فاقد البهجة، وكأنما اجتثت منه روح الحياة. أما الأطباء، فقد بذلوا قصارى جهدهم لإصلاح الاختلال الذي ضرب عقله، وأحال صرح إدراكه إلى أنقاض. وإذ فطن والد

"سوسنا" إلى أن الطب وحده قد لا يكون البلسم الشافي، التمس عون جمعية من الراهبات الزاهدات اللواتي ذاع صيتهن في فيينا بأعمال الرحمة، حيث كرسن حياتهن للعناية بالمرضى يطفئن لهيب آلامهم بلطفٍ ونكران للذات.

وما إن بلغ طلبه مسامع رئيسة الراهبات حتى استجابت برحابة قلب، غير أنه لم يكن متاحاً لديهن في ذلك الوقت سوى راهبة واحدة قادرة على القيام بهذه المهمة الجليلة، فأُمرت بالذهاب لرعاية ذلك البارون التعيس عسى أن تكون يدها الرحيمة بلسماً لجراح روحه المضطربة.

كانت تلك الراهبة تُدعى "أجنيس"، صبيةً لم تبلغ من عمرها إلا العشرين، لكن كل من يراها يخالها تجاوزت الثلاثين، فقد أرهقتها الهموم الدفينة، وشغلتها التأملات العميقة، وأثقلتها الأعباء الجسدية التي صاحبت مسيرتها في طريق الرهبنة. لم تكن هذه الحياة لتليق إلا بمن يحمل في قلبه شهامة الأبطال، ويتجرد من كل متاع الدنيا ليهب نفسه لخدمة الآخرين.

أجل، لقد عبثت المحن بجمال تلك الراهبة، فمحت من ملامحها رونق الشباب، وأطفأت من بسمتها بريق الأمل، فغدت ملامحها مرآة لأوجاع خفية، وتجلت في قسماتها آثار معارك ضارية خاضتها في سبيل دعوتها الجليلة، تلك الدعوة التي لم تكن إلا للقلوب الكبيرة التي عرفت معنى العطاء والتفاني.

الفصل الثاني عشر

وما إن وقعت عينا الراهبة على القنصل "ب" وزوجته لأول مرة حتى اضطرب كيانها بأسره، وارتجفت أطرافها ارتجافاً لا إرادياً، وسرت في أوصالها رعدة خفية، كأنما صاعقة من الماضي أطبقت على قلبها المضطرب، فاندفع الدم منه مسرعاً يكسو خديها الشاحبين بحمرة وردية خاطفة. غير أن القنصل وزوجته، وقد أثقل الحزن روحيهما، لم يلحظا ذلك التغير المفاجئ الذي طرأ على ملامح تلك الراهبة الشابة، إذ كان الأسى قد استحوذ على أحاسيسهما، فلم يعودا يلحظان شيئاً مما حولهما.

كانت تلك الراهبة الفتية تؤدي مهامها بإخلاص يفوق الوصف، إذ تجلت في طاعتها روح التقوى الصافية، فكانت كالشمس تسري أشعتها في الأجساد الشفافة فتلامس الأرواح بنور الإيمان العميق. ولم يكن إخلاصها وحده ما يميزها، بل كانت في كل حركة وسكنة تنضح بكرامة أصلها ونقاء جوهرها، حيث تبدى للجميع أن الفضيلة متجسدة فيها، وكأن الرحمة ذاتها قد ارتدت ثوباً نقياً لتسير بين البشر، ولذلك أسرت القلوب دون سعي منها، واستمالت الأبصار إليها بجاذبية خفية، كأنها صورة حية للطهر والنقاء تتمثل في هيئة بشر.

كانت السيدة "ب" تجد في محادثاتها مع تلك الراهبة الغامضة ينبوعاً دفيناً من البهجة العذبة، وكأن حديثها الهامس يعزف على أوتار روحها بلحن لا تدري له مصدراً، لكنه يملأ أعماقها بنشوة لا توصف. فكم من مرة اخترق صوت "أجنيس" حنايا نفسها، فاهتزت له مشاعرها، وانتابها إحساس مبهم كأن صدى تلك الكلمات يلامس سراً دفيناً في كيانها.

سعت السيدة "ب" مراراً وتكراراً أن تستدرجها إلى البوح عن بلادها وأصلها، عن أهلها وأحبابها، غير أن الراهبة كانت في كل مرة تتحول إلى موضوع آخر، وتنأى عن الحديث، وكأنما تخشى أن تنكشف ستائر ماضيها. وإذ فطنت السيدة "ب" إلى ذلك العناد الرقيق، عدلت عن إلحاحها خشية أن تثير في نفسها شجناً دفيناً أو توقظ جرحاً نائماً، فآثرت الصمت احتراماً لرصانتها، وإجلالاً لتحفظها.

ومع ذلك، ورغم حذر الراهبة وكتمانها، تسللت إلى يقين السيدة "ب" حقيقة غير قابلة للجدل؛ فقد استبان لها أن والدي أجنيس لا يزالان على قيد الحياة، وأن مسقط رأسها لم يكن في بلاد النمسا كما قد يُظن، بل في أرض أخرى بقيت طي الكتمان، كسِر يأبى أن يُباح.

ولم يكن ذلك الأمر وحده ما أثار الريبة في نفس سوسنا، بل ازدادت شكوكها حينما بدأت تلاحظ أن الراهبة تلوذ بالصمت المضطرب كلما اجتمعت بها، وكأنها تخشى أن تنكشف في عينيها حقيقة لا تريد لها أن ترى النور. كانت تبذل كل ما في وسعها لتتحاشى لقاءها على انفراد، فتتعلل بانشغال، أو تتوارى خلف جدار من التحفظ والتمنع، وكأنها تهرب من مواجهة تستثير في قلبها وجعاً دفيناً.

ولم تغب عن "سوسنا" تلك اللحظات الخاطفة حين كانت الراهبة تشيح ببصرها عنها، فترتعش أناملها وهي تكفكف دمعة ساخنة انسابت على وجنتيها في غفلة من إرادتها، دمعة تنطق بأسى عميق، حزن ليس في حاجة إلى كلمات لتفصح عنه، بل كان ينضح من كل خفقة في صوتها، من كل نظرة هاربة، من كل صمت مطبق يتوارى وراءه ماضٍ أبى أن يُمحى.

وفي أحد الأيام، ورد بريد من سوريا يحمل للقنصل "ب" خطابات ورسائل شتى، فانهمك في قراءتها بينما راح أهل البيت يتجاذبون أطراف الحديث حول الأخبار الواردة من بيروت ولبنان. كانت الراهبة "أجنيس" وقتئذ منكبة على تحضير دواء للبارون، ومستغرقة في عملها بعناية وإخلاص، غير أن أذنيها لم تغفلا عما يدور حولها. فما إن لامست كلمة "بيروت" مسامعها حتى انتفضت بشكل لا إرادي، والتفتت صوب القوم باندفاع غلب إرادتها، حيث بدا على ملامحها اهتمام مشوب باللهفة والرغبة في الاستطلاع، بيد أنها سرعان ما أدركت تبدل ملامحها فتراجعت عن ردة فعلها المفاجئة متوارية خلف قناع من الهدوء المصطنع. غير أن زوجة القنصل التي كانت تتمتع بفراسة حادة لم يفُتها ذلك الارتباك الطارئ، فقالت لها مستفسرة بلطف:

– يبدو لي أن أحداث سوريا تثير اهتمامك أيتها الأخت الفاضلة؟
ابتسمت الراهبة ابتسامة هادئة أخفت وراءها اضطراباً دفيناً، وأجابت بنبرة يكسوها الشوق:
– أحسنتِ قولاً سيدتي الفاضلة! لطالما حسدتُ أولئك الذين يقطنون تلك الديار الآسرة! أوليس ذلك الوطن هو الذي احتضن أعظم المعجزات، وتتجلى فوق ثراه أقدس أسرار ديانتنا، تلك التي تنساب في الأرواح كما ينساب النور في الفجر الصادق؟ أجل، لقد كنتُ هذا الصباح أتلو صلاتي، وإذ بي أتوقف مأخوذة أمام وصف مهيب للبنان، لذلك الجبل الذي ينتصب في إباء، ولأرزه الشامخ الذي يُناجي السماء بثبات لا يلين، ما أصفى هواء تلك الربوع! عليلاً رقراقًا نقيًّا كأنفاس الطهر، لا تعكره سحائب قاتمة ولا تحجبه غيوم كئيبة، على خلاف سماء أرضنا، حيث لا يزال المطر ينهمر منذ أيام كدموعٍ تأبى الزوال!
ثم قطعت حديثها فجأة، كما لو أنها أدركت إسهابها في الحديث، فالتفتت صوب المريض بعينين تغمرهما الشفقة قائلة بنبرة تنضح حناناً:
– آه، كم يعتصرني القلق على البارون! لقد مضت أيام وهو عاجز عن الخروج لاستنشاق نسمة هواء نقي، وكأن جدران الحجرة تضيق عليه شيئاً فشيئاً!
ولم تكتفِ بذلك، بل سعت إلى مزج كلماتها ببراءة طبيعية وعاطفة صادقة، تلك العاطفة التي عُرفت بها طائفة الراهبات حتى أن زوجة القنصل لم يخطر ببالها آنذاك أن الأمر يحمل بين طياته سراً خفياً.
غير أن الحديث عن أجنيس لم يتلاشَ رغم انصرافها، بل ظل صداه يتردد في أرجاء المكان. فما إن غادرت الحجرة حتى استغرقت زوجة القنصل في مديحها أمام زوجها مسترسلة في الإشادة بخصالها النبيلة، ومتحدثة بإعجاب عن تواضعها الذي يزيدها رفعة، ووداعتها التي تأسر القلوب، وصدقها الذي يبعث على الثقة، وإخلاصها الذي يندر في ذلك الزمن. ولم يكن القنصل وسوسنا سوى مؤيدين لذلك الإعجاب يشاركانها الثناء، وكأنما قد اجتمعوا جميعاً على الافتتان بتلك الفضيلة المتجلية بوضوح في شخص الراهبة بكل ما حملته من حشمة وقار وإخلاص نادر، حتى غدت مثالاً حياً للنقاء والصفاء في أعينهم جميعاً.

الفصل الثالث عشر

وفي غمرة المحنة، حين يستحكم الداء ببدن أنهكه العناء، وجد البارون "دو لينس" نفسه أسيراً لوطأة المرض حتى أضحى شاحب الوجه، منهك القوى، لا يقوى على مد يده إلى طعام إلا بمساعدة يدٍ رحيمة، يد تلك الراهبة الطيبة التي سخرت ليلها ونهارها لخدمته. لقد تعاقبت عليه نوبات الأسى، فتارةً تتملكه ثورة الغضب، وتارةً يسقط فريسةً لليأس القاتم فيعجز الرجال شديدي البأس عن تهدئته، ولكن ما إن تدنو منه الراهبة بكلمةٍ رقيقةٍ حتى تخمد نيران وجدانه، ويسكن اضطراب روحه، وكأن الألم لم يسبق له أن وُجد.

كانت تسهر إلى جواره ساعات طويلة لا تبتغي لنفسها راحة إلا لحظاتٍ قليلة، وإن استغرقتها غفوة عابرة، سرعان ما يوقظها أنينُه المتوجع فتعود إليه دون توانٍ أو فتور، كما لو أن قلبها قد ارتبط به برباطٍ من الرحمة لا ينفصم.

وعندما يصفو الجو، ويصبح الهواء عليلاً، كانت عربته تأخذه في رحلة إلى حديقة "شنبرون" الزاخرة بالجمال، حيث تفوح الطبيعة بأريجها العذب، وكأنها تسعى لتخفيف عبء روحه المثقلة. لم يكن يرافقه في تلك الرحلة سوى سوسنا أو أجنيس الراهبة؛ اللتين لم يكن إخلاصهما له إلا كإخلاص ملاكين حارسين يتشاطران همومه كما لو كانتا قد نذرتا أنفسهما لرعايته. ورغم تلك العناية الصادقة، أعلن شحوب وجهه بوضوح أن مرضه قد تفاقم حتى بات يُخشى أن يكون مرضاً مستعصياً لا رجاء في علاجه. ومع ذلك، يتجلى لكل من يراقب المشهد عن كثب ويرى تفاني سوسنا وأجنيس أن روحَيهما قد اندمجتا في أرقى معاني العاطفة النبيلة والإخلاص الصادق.

ذات مساء، وحين انطلقت عربة البارون تقله برفقة الراهبة و"سوسنا" صوب نزهتهم الموعودة، بقيت السيدة "ب" وحدها في المنزل، وقد وجدت في ذلك الانفراد متنفساً لعاطفة أحزانها المكبوتة. فتسللت إلى غرفة البارون وجلست هناك في هدوء تاركة الدموع تتهادى على وجنتيها بصمتٍ موجع.

وفي سكون الليل، اجتاحت الذكريات خاطرها، فاستعادت تلك السنتين المنقضيتين، وكيف كان وصول البارون إلى مصيفها في لبنان بداية لقدرٍ لم تكن تعلم ما يخبئه. توالت المشاهد في ذهنها، فرأت كيف أُجتذب قلبه نحو ابنتها "وريدة" انجذاباً عاصفاً لا يقاوم، وكيف باركت تلك الخطوة سعيدةً بأنها كانت شاهدة على ذلك التغيير الكبير في حياة الشاب النبيل الذي كان يضيء حياتهم كالشهاب.

غاصت في بحر الأماني العذبة التي طالما عقدت عليها آمالها مع زوجها، تلك الأحلام التي صاغت في خيالها مستقبلاً مشرقاً لابنتها، وهي ترتبط بأكرم الرجال، راجية الله أن تجد في "شارل دو لينس" يوماً سنداً وعوناً لها ولزوجها حين يبلغان الشيخوخة. غير أن تلك الابتسامات التي انسلت بين دموعها كوميض البرق في ظلمة الليل، ما لبثت أن انطفأت أمام سيل الذكريات الأليمة.

لاحت في ذهنها صورة حفل الخطبة البهيج، ثم سرعان ما تلاشت تحت وطأة الحدث الجلل الذي أعقبها، ذلك المصاب الفادح الذي وقع أثناء عودتهم من أثينا. تبددت الأحلام كما تتلاشى فقاعات الزهور الزاهية التي لا تلبث أن تختفي حين يفيق النائم من حلمه الجميل ليواجه واقعاً مؤلماً لا مفر منه.

قضت تلك الأم المسكينة لحظاتٍ طويلة في لجة الأفكار والهواجس تتقلب بين أملٍ ضائع وحزنٍ مقيم حتى شعرت بانكسارٍ يعصف بروحها، فنهضت بعزم، وخرت ساجدةً عند المحراب الذي كانت الراهبة "أجنيس" تقضي عنده نصف لياليها في الصلاة، وقد غمرها إحساس عميق بالحاجة إلى دعاءٍ خاشعٍ يطفئ حرائق وجدانها.

وكم أثقلتها الأيام بأحمالها الثقيلة حتى بات لزاماً عليها أنْ تواري همومها في أعماق صدرها، فلا تبثها إلا إلى الله ملاذ القلوب الكسيرة، ومنبع العزاء الحق.

توجهت إلى المحراب الذي سجدت فيه مراراً، حيث وُضع كتاب الصلوات الذي لطالما استعانت به الراهبة في عبادتها. مدت يدها إليه بغير اكتراث يحدوها الأمل في العثور بين صفحاته على دعاء يتماشى مع حالها، غير أنها ما إن وقعت عيناها على الصفحة الأولى حتى ارتعدت فرائصها وتوقفت أنفاسها للحظة. كان هناك اسم مطموس أُزيل بعناية، ولم يبقَ

منه سوى الحرف الأول، وهو حرف "الواو" الذي رسم بخط بديعٍ. تهاوى الكتاب من يديها المرتعشتين، وسرت في أعماقها رجفة غامضة حالت بينها وبين الصلاة، بل أثارت فيها موجة عاتية من الذعر والارتباك.

راحت تقلب صفحات الكتاب، وتقرأها بعينٍ مضطربة، حيث تشبث قلبها بالأمل في العثور على دليلٍ يقودها إلى الحقيقة. بيد أن بحثها المضني لم يُسفر عن شيء، ولم يكن لذلك الحرف "و" سوى أن يُشعل نار الحيرة في فكرها، ويفتح أمامها أبواب الظنون والاحتمالات.

توالت الافتراضات على ذهنها كأمواج البحر المتلاطمة، حيث راح كل منها يفرض نفسه بقوة إلى أن تسلل إلى خاطرها احتمالُ مريب: "هل يُعقل أن تكون الراهبة "أجنيس" هي نفسها ابنتها "وريدة"؟".

لم يكن توهمها ضرباً من ضروب المحال، بل إن صوت الراهبة وملامحها لم يكونا غريبين عنها، بل كلما تأملت وجهها أو أصغت إلى حديثها شعرت باهتزازٍ في أعماقها لم تستطع تفسيره، وكأن قلبها لم يكف عن الهمس إليها بنداءٍ غامض لم تفهمه يوماً. منذ أن وقعت عيناها على تلك الراهبة لأول مرة، أحست بانجذابٍ لا يُقاوم إليها، بود بالغ ومحبة جارفة لم تستطع تعليلها.

أخذت تحدث نفسها قائلة: "إن للقلب حججاً لا يفقهها العقل أحياناً، فكيف لا نُصغي إلى براهينه وإلهاماته التي قد تكون أصدق من منطقنا؟"

ولكن سرعان ما كانت تعود إلى رشدها فتُسكت ذلك الصوت المتمرد بقولها: "كلا، هذه مجرد أوهام، بل أحلام واهية. وريدة فارقت الحياة منذ زمن بلا أدنى شك، وإن كانت لا تزال على قيد الحياة، فمن المحال أن تكون أجنيس، فهي تكبرها بعشر سنين على أقل تقدير".

وفي خضم بحر التردد الذي كانت تغرق فيه متأرجحة بين يقين يطمئن قلبها وشكٍ يعصف بها، حيث تصدق تارةً أن الراهبة "أجنيس" هي ابنتها "وريدة"، ثم تعود فتنكر الأمر على نفسها، قررت أخيراً أن تواجه ذلك الغموض وجهاً لوجه، وأن تسعى خلف الحقيقة بكل عزيمة وقوة. لم تجد مفرّاً من البوح لزوجها بما يختلج في صدرها من شكوك وظنون، فاتفقت معه على أن يكتشفا سر اللغز معاً، وقررا أن يبوحا للراهبة بما في صدورهما من ريبة لعلهما يتمكنان من دفعها إلى الاعتراف. وإذا اقتضت الحاجة، فلن يترددا في اللجوء إلى الرئيسة واستطلاع رأيها، فقد أصبح ذلك الغموض ثقيلاً عليهما، ولا يستطيعان تحمله أكثر من ذلك.

ولكن في تلك الليلة تأخرت مركبة البارون على غير عادتها، ولم تعد في الموعد المحدد، وكأن الأقدار كانت تمهد لحدثٍ جلل. تبدلت ملامح السماء فجأة مثلما يحدث كثيراً في ذلك الفصل من السنة، فتراكمت السحب الداكنة، وانهمرت الأمطار مدراراً تتساقط على زجاج النوافذ كأنها دموع سكبتها السماء. كانت الرياح تعصف من حين لآخر يرافقها أنين محمل بالكآبة يشبه النعيق، وكأن الطبيعة نفسها كانت تبكي أمراً ليس في الحسبان.

أما السيد "ب" وزوجته، فقد غمرهما القلق حتى بات الخوف يستبد بهما، إذ طال انتظار العائدين بلا جدوى. وفي خضم تلك اللحظة، تناهى إلى مسمعهما وقع حوافر الخيل من بعيد، ثم توقفت عربة أمام باب القصر، وترجلت منها "سوسنا، وبرفقتها "شارل"، لكنهما كانا وحدهما تكسو ملامحهما مسحة من القلق والوجوم.

لم تكن الراهبة "أجنيس" بصحبتهما، وحين سُئلت "سوسنا" عنها، أجابت بنبرة مرتجفة قائلة إن الراهبة قد شعرت بضعفٍ مفاجئ أثناء عودتهم من النزهة، ولحسن الحظ كان الدير قريباً، فتمكنوا من نقلها إليه في الحال. استُدعي الطبيب على وجه السرعة، وبعد فحصها بدقة، أعلن بقلقٍ بالغ أن حالتها تنذر بالخطر، فقد بلغت من الوهن والهزال حداً لا يجب الاستهانة به!

الفصل الرابع عشر

ها هي الساعة قد بلغت التاسعة مساءً، وفي حجرة متواضعة داخل دير الراهبات خادمات العذراء في مدينة فيينا، حيث ترقد راهبة على فراشها، وتتنفس بصعوبة لتلقى القدر الذي يطوقها معتصراً أنفاسها المتباطئة، بدت في صراع مرير ضارٍ مع الموت، في نزاع لا يرحم بين روح تتشبث بالحياة وجسم قد شرع في الانهيار. أخذ الموت يدنو منها رويداً رويداً، ويراقبها بصمت رهيب، وبينما هي بين قبضته، ظلت تصارع، وتقاوم متشبثة بما تبقى لها من حياة، ويداها الواهنتان ما زالتا مرتعشتين.

اجتمع عدد من الراهبات، وقد انحنت رؤوسهن بخشوع، وتشابكت أيديهن في تضرع، وهن يرسلن الصلوات إلى السماء، وكأنهن يرجون الله أن تفتدي أنفاسهن الخاشعة روحها المتعبة. وفي ركنٍ من الغرفة، وقف الكاهن الذي أودعته الراهبة المحتضرة آخر أسرارها يهمس إليها بكلمات التثبيت، حيث قال لها بنبرة متهدجة مرتعشة:

– تشجعي أيتها الأخت العزيزة، فقد أُعد لكِ إكليل المجد في السماوات، حيث يفيض النور الإلهي رحمة وسلاماً. لقد قبل الله منكِ هذه التضحية التي قدمتها بقلبٍ ثابتٍ وإيمان لا يتزعزع، وسيرفع صلواتك الطاهرة ليجعلها بركة وفداء لمن أحببتِ.

وما إن فرغ من كلماته حتى ارتسمت على ملامح الراهبة دلائل الرحيل القريب، فأدرك الحاضرون أن لحظة الفراق قد حانت، فخر الكاهن على ركبتيه، ورفع صوته بصلاة الوداع قائلاً بخشوع امتزج بدموع الراهبات الراكعات:

– أيتها الروح الطاهرة، ارحلي بسلامٍ من هذا العالم، باسم الله القدير الذي جبلك، وباسم الملائكة والرؤساء السماويين، وباسم الأنبياء والأبرار، وباسم القديسات العذراوات، وسائر أولياء الله وأحبائه، ليكن اليوم مقرك في السلام، ومسكنكِ في الفردوس الأبدي.

أستودعكِ الله أيتها الأخت العزيزة، وأسلم روحكِ الطاهرة إلى من جبلكِ من تراب الأرض، حتى إذا ما أتممتِ رحلتك البشرية بالموت عدتِ إلى خالقكِ، حيث تستقبلكِ نفحات الرحمة، ويحيط بكِ موكب الملائكة النورانيين، ومحافل الشهداء الظافرين، وصفوف العذارى الطاهرات. هناك، حيث تسكن روحكِ في سلام أبدي، وتشرق عليكِ أنوار المجد تتلاشى أمام بهائكِ قوى الظلام.

وعندئذ توقف الكاهن عن الكلام، ثم نهض مانحاً المحتضرة البركة الأخيرة، ورحل من الغرفة حاملاً في يده الزيت المقدس. لم يبقَ في الحجرة سوى صلوات الراهبات الراكعات، حيث تتصاعد همساتهن الخافتة كأنها نغم سماوي يملأ السكون بخشوع، في حين أن الروح الأخيرة ترفرف في صراعها الأخير محاولة الانعتاق من أغلال الجسد لتسلك درب الخلود.

ولكن، فجأة، نهضت الراهبة المحتضرة بصعوبة، وكأن قوة غامضة أعادتها للحياة للحظة، فرفعت يدها بارتجاف في إشارة إلى رغبتها في الكلام. تقدمت الرئيسة صوبها على الفور مخفيةً حزنها العميق في أعماق صدرها، وهي تسعى لانتزاع تلك النفس الطاهرة من مخالب الموت. لقد كانت نفساً عظيمة مشرفة بالشجاعة والطهارة، نفساً لطالما تأملتها الرئيسة بإعجاب منذ أن لمحت فيها قبل عام فضيلة نادرة تستند إلى أقوى الدعائم الروحية.

انحنت إليها بحنو مصغية إلى كلماتها الأخيرة، فكان للكلمات وقعٌ في قلبها، حتى أنها رفعت منديلها مراراً لتمسح دموعها الغزيرة التي انهمرت كالمطر. ثم، في نهاية المطاف، وبعد أن خنق التأثر صوتها، التفتت إليها وقالت بصوت متهدج:

– اطمئني واذهبي بسلام أيتها الأخت العزيزة، سأحفظ وصيتكِ وأحققها بكل أمانة وإخلاص. لقد كنتِ مثالاً للشجاعة والنبل، آه، ليتني استطعت أن أفتديكِ بحياتي!

وعندئذ، حين أيقنت أجنيس أن الرئيسة ستنفذ وصيتها، ارتسمت على شفتيها ابتسامة امتنان، وأرخت رأسها على الوسادة باحثة عن الراحة الأخيرة. رفع الحاضرون أبصارهم، ورأوا شفتيها تتحركان في همس خافت، وعينيها المتعبتين ترتفعان إلى السماء بنور متقد، فأدركوا أن صلاة حارة رُفعت إلى الله من تلك الروح النقية التي كانت مهبط البر والطهارة.

وبإشارة من الرئيسة قُربت طاولة، ووضعت إلى جوار فراش المحتضرة، وقد عجت بأشياء متناثرة بلا ترتيب كأنها بقايا عمر

يوشك على الرحيل: أسفار مقدسة، مسبحتان، كتاب "الاقتداء بالمسيح"، كتاب "القوانين الرهبانية"، خطابات قديمة، وبعض الصور والرسوم الشمسية القليلة، وصليب صغير إلى جانبه سوار ذهبي.
راحت أجنيس تتأمل تلك الأشياء بابتسامة، وكأنها تعيد رسم ذكرياتها، بينما تخبو الحياة من عينيها شيئاً فشيئاً، ويقترب نور الأبدية حاجباً عنها ظلام الموت القادم.
أجل، بدت تلك الأشياء وكأنها ألسنة خفيةً تنبضُ بالحياة، وتهمسُ لها بأسرارِ أيامها الراحلة، حيث تروي حكاياتٍ نُسجت بخيوط الذكرى، فتبعث في قلبها طيفاً من الأيام المنصرمة. بدت كل قطعة بين أصابعها المرتعشة وكأنها تهمسُ قائلة: "أما تذكرين؟" وكيفَ لا تذكر، وهي التي وجدت في الماضي ملاذاً يهون عليها قُرب الرحيل؟ كانت تتبسم من وقت لآخر، لكنها لم تكن ابتسامة فرح، بل تلك الابتسامة الشفافة التي لا تعرفها إلا القلوب التي أدركت أن النهاية باتت قريبة، ابتسامة مذعنة للقدر، مغمورة بصمت عذب.
وفي تلك الأثناء، تراءى لها طيف الوطن، وهو يلوح أمام عينيها كحلم بعيد المنال، وانسابت إلى مسامعها أصوات العائلة دافئة حانية، وكأنها لم تفارقهم يوماً. تأثرت حتى شعرت بدفء الحياة يسري في أوصالها للحظة فتلونت وجنتاها الشاحبتان بحمرة وردية خفيفة، ولم تلبث أن انسابت دمعتان رقراقتان على خديها المرهقين كقطرتي ندى فوق زهرة ذابلة.
تأملت ما بقي لها من أشياء عزيزة كأنها تودعها بنظرة أخيرة، ثم رفعت ناظريها صوب الرئيسة تشكرها بعينين تملؤهما الطمأنينة، وهمست بصوت واهن يكاد يكون همس الريح: "أرجوكِ، صلي لأجلي قليلاً".
فأجابتها الرئيسة، وحنانها يفيض دفئاً وصدقاً: "بل سأصلي كثيراً، كثيراً جداً".
وعندئذ أغمضت الراهبة المحتضرة عينيها قليلاً، ثم همست: "لقد آن الأوان، انتهى كلُ شيء، جاء وقتُ الجزاء والثواب، أشكرك يا رب على نعمِك الغامرة!"، ثم التفتت صوب الرئيسة، وقالت بصوتٍ خافت:
– أماه، هل تأملتِ يوماً تلك الآية التي قالها بولس الرسول: (الموت هو ربح لي)؟ آهٍ، كم أنا مشتاقة إليه، ولكن، أتراني أخطأتُ حين تقت شوقاً إلى الرحيل؟".
ثم أمالت رأسها على الوسادة، وغرقت في تأملات أخيرة، كأنها تودع الحياة بحديث هادئ مع السماء، وهمسات قلبها تعبر الفاصل بين الأرض والخلود.
وفجأة، ارتفع صوتها قليلاً، وكأنه شعاع أخير من روح متوهجة: "لقد تكبدت الشقاء من أجله، وها أنا أقدم حياتي قرباناً، فاقبلني يا إلهي! المغفرة، المغفرة يا أبي الحبيب، المغفرة يا شقيقتي العزيزة"
ثم اضطربت أنفاسها، وبدت وكأنها ترى ما لا يراه سواها، فتمتمت بذهول مفعم بالسكينة: "آه! أنتم هنا؟ أراكم قريبين مني، وأنتم أيضاً، يا ملائكة الرحمة تحلقون حولي، ارحمني، يا إلهي، ارحمني!".
أخذت أصابعها تنقبضُ ببطءٍ فوق الغطاء، واقتربت الرئيسة منها، أمسكت بيدها برفق، وعندئذ فتحت الراهبة عينيها. نظرت نظرة أخيرة إلى السماء شاردة، وكأن نداءً عذباً يتناهى إلى مسمعها: "هلم أيتها الأخت الحبيبة، هلم، فقد انتهت آلامكِ، وانقضت أوجاعكِ، وأجنحتنا تبسطُ لكِ الطريق إلى النور"
ارتعش جسدها للحظة، وكأنه يود اللحاق بأرواحٍ خفية، ثم أطلقت زفرةً هادئة لتنطلق روحها الهائمة إلى بارئها مستسلمةً إلى السلام الأبدي.
وفي تلك اللحظة توقفت آلامها، وصمتت أوجاعها إلى الأبد. وما إن فارقت الحياة حتى دوت ساعة كاتدرائية القديس "ستيفنس" معلنة انتصاف الليل، وفي ذاتِ الوقت فُتحت أبواب ملاهي العاصمة النمساوية على مصراعيها، حيث تفجرت منها الأضواء والموسيقى، واندفعت جموعُ الناسِ في الشوارع غارقين في مباهج الدنيا غير واعين أن روحاً كانت تصعدُ إلى السماء في سكينةٍ أبدية.
وفي غمرة ذلك الضجيج، دوى جرس دير "الراهبات الممرضات" بنغمة حزينة، وكأن صوته حامل في طياته أنيناً مكتوماً، أو تنهيدة روح مغادرة الأرض، وعابرة بهدوء من عالم الفناء إلى رحاب الخلود.

الفصل الخامس عشر

كانت الحياة قد غدت مريرة كعلقمٍ على السيد "ب" وزوجته منذ أن فارقتهم الراهبة أجنيس، وكأنها حملت معها آخر ما تبقى من دفء الأمل في دارهم الكئيبة، وطوت صفحة مضيئة من حياتهم، تاركة وراءها ظلالاً ثقيلة.

لقد كان وجودها بينهم بمثابة شعاع خافت من شمس الرجاء ينفذ إلى زوايا بيتهم الذي نهشته أنياب الزمن، وأثقلته المصائب حتى بات أشبه بمركب تتقاذفه العواصف دون هوادة. بل لقد حسبوها روحاً تبعث الحياة في أنفاسهم الذابلة، وملاكاً يسير بينهم، حيث يتجول في أرجاء المنزل برقة وسكينة، كما يتخيل الشعراء ملائكة تنتصب على مضاجع الأطفال لتزين وجوههم برفق، وتحرس أحلامهم بأنفاسها الطاهرة.

كم توسّل إليها أهل البيت مراراً أن تخفف عن نفسها وطأة العناء خشية أن تستنزف حياتها قبل الأوان! لكنها كانت تجيبهم بابتسامة هادئة تنبع من لطف عجيب، ورضا عميق:

– الحياة ليست هي الغاية الأسمى، بل إن واجبنا المقدس هو أن نؤدي الخدمة بإخلاصٍ ونشاط، بل أن نبذل أرواحنا في سبيل القريب إن استدعى الأمر ذلك. وإن أنا فارقت الحياة، فستحل واحدة من أخواتي الراهبات محلي في الخدمة. أما هو –وقد أشارت إلى البارون– فيجب أن يبقى على قيد الحياة، بل إنني أشعر في قرارة نفسي أنه سيشفى، وسينهض من سقمه معافى بإذن الله".

وهكذا، بقيت أجنيس ملازمة لرعاية ذلك العليل تسهر على راحته بصدقٍ وإخلاص، وتتفانى في خدمته، وهي تتابع حركاته وسكناته طوال الليل وأطراف النهار. غير أنها لاحظت، وسط هذيانه المضطرب، بوادر من الصفاء العقلي ورجاحة الفكر، فأدركت أنها إشارات خفية تبشر بأن الشفاء بات قريباً.

وفي بعض الليالي، كان الإعياء يشتد عليها بعد سهرٍ طويل فتغلبها عيناها للحظات، وتطبق أجفانها المثقلة بالنعاس، في حين أن الحمى راحت تنخر جسدها الهزيل رويداً رويداً. لكنها لم تلبث أن تنتفض مذعورة خشية أن تكون قد قصرت في واجبها المقدس.

وما إن تستعيد أنفاسها حتى تهرع إلى المريض تتحسس نبضه، وتمسح عرق جبينه، ولا يهدأ روعها إلا حين تطمئن عليه فتبتسم لنفسها ابتسامة رضا وراحة، ثم تنكب على خدمته بطمأنينة وعزم لا يلين.

كان البارون يُكثر من الهذيان طوال النهار فينسج من كلماته خيوطاً واهية بين الواقع والخيال، فإذا ما أرخى الليل سدوله، وحل السكون، وأقبلت الراهبة أجنيس لتسهر إلى جواره، هدأ اضطرابه، وعاد إليه شيء من صفاء العقل. وفي لحظاتٍ من الوهن المشوب بالحنين، كان يبسط ذراعيه أمامه كمن يرى طيفاً عزيزاً لا تبصره سوى عينيه، فتتلفظ شفتاه الرقيقتان باسم خطيبته "وريدة"، وكأنما يستحضرها من غياهب الزمن البعيد.

استمر ذلك الوضع لأسابيع طويلة، وقد ظلت الراهبة أجنيس على عهدها، حيث لم تنعم بأية راحة، وأخذت تحيي الليل بالصلاة، وتهمس تراتيلها بخشوع حتى كادت سبحتها تبلى بين أصابعها النحيلة من فرط ما مررت حباتها بين أناملها المرتعشة.

وذات يوم، حين لمحها الطبيب "فون"، وهو عجوز وقور من أساتذة أكاديمية فيينا الطبية، نهرها بلهجة صارمة تتخللها نبرة التهديد:

– لا تتهاوني في حق نفسك أيتها الأخت! وإلا رفعتُ الأمر إلى رئيستك، فإنك بهذه الخدمة، وبما تبذلينه من عناء تسيرين على حافة الهاوية، وتهلكين صحتك!

غير أنها بعينيها الضارعتين ولهجتها المتوسّلة همست له برجاء خافت: "أرجوك، لا تفعل ذلك! امنحني بضعة أيام أخرى فقط، فأنا على يقينٍ تام بأن البارون سيُشفى، بل لابد أن يُشفى!

كانت كلماتها، التي تفوهت بها بكل يقينٍ وثبات، كفيلة بأن تهز السيد "ب" هزاً عظيماً. بيد أنه لم يكن يتصور أن القدر قد دون لها فصلاً آخر في هذه الحكاية، لم تمضِ سوى أيام قليلة حتى نال المرض من جسدها الضعيف، فسقطت طريحة

الفراش تتقلب بين براثن الألم، وقد أنهكها الوهن، وكان ذلك المرض آخر ما ألمّ بها، فقد أغمضت عينيها في سكون، ولم تستيقظ بعدها.
وحين أخبرتها رئيسة الدير لأول مرة بأنها على شفا حفرة من الموت، تلقت الراهبة أجنيس النبأ بفرحٍ يشعُّ في عينيها، وعانقت رئيستها قائلة:
– الشكر لك يا إلهي! كم أنا سعيدة لأنك تدعوني إليك! فإن في موتي خلاص البارون!
ولكن بينما كانت أجنيس تنازع سكرات الموت تفاقم داء شارل، وكأن القدر عمِد إلى تكذيب يقين تلك الفتاة القديسة ولو للحظات. تتابعت عليه النوبات، وتناوبته الآلام حتى أصبح الموت منه قاب قوسين أو أدنى، وغاب عن الوعي تماماً، فلم يعد يعرف أحداً، بل أصبح حضور "سوسنا" بالنسبة له من أبغض ما يكون، وكأنها ظل يُثقل روحه المتعبة.
أما "سوسنا" المسكينة فلم تجد مفراً من قضاء أيامها باكية غارقة في النحيب ترثي لنفسها فقدان شقيقتها والبارون معاً، وكأن القدر قد قرر أن يسلبها كل من تحب دفعةً واحدة.
وفي تلك اللحظة الحزينة نُقلت إلى السيدة "ب" أنباء وفاة الراهبة أجنيس، وسُلمت إليها حزمة صغيرة حوت تذكاراً من الفقيدة. تناولتها تلك الأم المكلومة بيدين مرتعشتين كما لو كانت ذخيرة مقدسة، ولكن ما إن فتحتها حتى أطلقت صرخة مفجعة، وسقطت مغشياً عليها بين ذراعي "سوسنا".
أما الحزمة الصغيرة فقد احتوت بين طياتها صوراً فوتوغرافية، وصليباً صغيراً من الذهب، وسوارين نقش عليهما حرفان متداخلان، وهما "و" و"ل"، في إشارة إلى لقب "وريدة دو لينس". لقد كانا نفس السوارين اللذين قدمهما البارون لخطيبته يوم خطبتهما، حين زينت بهما معصميها في تلك الأمسية المشهودة. ومع هذه التذكارات، كان هناك خطاب يحمل كلماتها الأخيرة:
أمي الحبيبة،
حين تصلكِ هذه الرسالة أكون قد أغمضتُ عيني على نور الدنيا، وفتحتهما على ضياء الأبدية. كنتُ أتوق إلى أن أضمكِ إلى صدري، وأقبلُ يدي أبي، وأرتمي في أحضان شقيقتي "سوسنا"، لكنني آثرت أن أجنبكم ألم الوداع، وأن أقدم هذه التضحية الأخيرة لعلها تكون ختام تضحياتي التي نذرتها لله.
لقد بذلتُ حياتي من أجل شفاء "شارل"، وأنا على يقين بأن الله قد قَبِل نذري. فما أعذب هذه الطمأنينة التي تغمر روحي، وما أسعدني بهذه النهاية! أغادر دنياكم، لكنني لا أفنى، بل إلى لقاء أبديّ، حيث سأنتظركم هناك في فردوس لا يعرف الفراق.
أوصي "سوسنا" بأن تقترن "بشارل"، فهذا جل أمنياتي، بل إنها وصيتي الأخيرة، وأمر لابد من تنفيذه،
جففوا دموعكم يا أحبّتي الأحياء، فإني واثقة أن هذه الدموع هي آخر ما ستسكبونه من أجلي. لم يخطر ببالي يوماً أن في التضحية والمغادرة حلاوةً كتلك التي تملأ روحي الآن.
اغفروا لي ما جلبته لكم من ألم. كان عليّ أن أختار بين حياتي وحياة شقيقتي، ولم يكن هناك مجال للتردد، فوهبتُ عمري بلا تردد فداءً لمن أحبها أكثر من حياتي نفسها.
ستفقدون ابنة برحيلي، غير أن الابنة التي تبقى لكم هي خيرُ مني،
الوداع يا أبي، الوداع يا أمي، والوداع يا شقيقتي العزيزة، بل هو وداع على أمل اللقاء.
وريدة ب،
أما البارون، فما إن وقعت عيناه على حُليّ خطيبته النبيلة حتى بدا كمن استيقظ من غفوة طويلة، وأطلق زفرة ارتياح وكأن روحاً جديدة دبت في أوصاله. راح يتلفت بين الحاضرين مذهولاً، وكأنه لا يدري شيئاً مما جرى، ولكنه لم يلبث أن نهض، وقد استعاد وعيه، وعاد إليه رشده.
وكان أول ما صنعه هو أنه اندفع صوب تلك الآثار العزيزة لديه، وأخذ يضمها إلى صدره بلهفة العاشق المتيم، ويقبلها بامتنان غارق في التأثر شاكراً الله على عظيم نعمته وجميل رحمته، وقد كانت دموعه تنهمر كنهر دافق، كغيث مدرار يروي

أرضاً عطشى.
أجل، لقد قُبلت التضحية التي قدمتها "وريدة" لدى الله، وها هو خطيبها ينال الشفاء من دائه العضال بفضل حبها الذي تجاوز حدود الحياة.

الفصل الـسادس عشر

ذلك اليوم الذي نروي أحداثه الآن لم يكن يوماً عادياً، بل كان أحد الشعانين، يوماً فاض بالفرحة وتجلت فيه البراءة، فارتدى أهالي "فينا" حلل العيد البهية، وتوجهوا إلى الكنائس يؤدون طقوسهم بخشوع وإيمان. وما إن فرغوا من صلواتهم حتى بدؤوا بالخروج جماعات، حيث حمل كل منهم غصناً من البقس، بينما كان الهواء مشبعاً برائحة البخور الطيبة، وأجراس الكنائس تدوي بألحانها العذبة، كأنها بلابل تسابق نسيم الربيع، وتملأ أرجاء العاصمة.

أما السماء فقد ارتدت ثوباً أزرقَ بديعاً يسرُ الناظرين، بينما كانت شمس شهر أبريل الساطعة تبدد ضباب الوادي الرقيق فتكشف عن حدائق "فينا" الغناء، حيث تزينت الأشجار المنتظمة في صفوفها ببراعم زاهية وأوراق ندية، وشدت الطيور بين أغصانها كأنها تحتفي بالربيع القادم، وتستقبل الحياة المتجددة.

ولكن في قلب ذلك المشهد البهيج، كان الموت يرقد في صمته المهيب، ففي ردهة دير "راهبات المرضى" كانت جثة الراهبة أجنيس ممددة في سكون عميق يظللها صليب مرتكز عند رأسها. بدت وكأنها نائمة في هدوء مرقدها الأخير، وكأن الموت قد توقف متأملاً أمام طهرها بتوقير وإجلال، فلم يجسر على تشويه ملامحها الملائكية، بل أبقى ابتسامتها الهادئة مرسومة على شفتيها، وكأنها في لحظة صلاة خاشعة لم تنتهِ بعد.

في ذلك اليوم، غلفت الغرفة التي تضم جسد الراحلة أجنيس سحابة من الظلام الهادئ، حيث أُغلقت النوافذ بستائر سوداء لتحجب الضوء عن الداخل، مما جعل الحجرة تبدو وكأنها تحتفظ بسرٍ مشوب بالغموض. وحول الجنازة، أُضيئت مشاعل مراسم الموت بهدوء؛ تشع نوراً خافتاً يضفي هالة من الغموض، كما لو كانت تلك الأنوار بمثابة تكريم لروحها الطاهرة.

كانت الراهبات رفيقات الفقيدة مرتديات ثيابهن البيضاء، والحزن يملأ أعينهن، حيث تناوبن الركوع حول مرقدها، ورحن يذرفن الدموع، وتناثرت الصلوات من أفواههن. وقد أقبل إلى الردهة التي كان فيها جسد الفقيدة عدد كبير من الغرباء مدفوعين بتلك الجاذبية الغامضة التي تستحوذ على الألباب.

ثم انفتح باب الغرفة، فدخل منه أربعة أشخاص يرتدون ثيابًا سوداء اللون، وأوشحة الحداد. كان بينهم رجل وامرأة، وعلى وجوههما سيماء الوقار، ثم فتاة يستند إلى ساعدها شاب هزيل يبدو عليه آثار المرض. وإذا أمعنت النظر في ملامحه التي غزاها الهزال والشحوب لبات صعب عليك أن تتصور أنه هو البارون دو لينس، خطيب وريدة الراحلة، والذي كان في زمن مضى نابضاً بالقوة والحيوية، وكانت الحياة والبهجة تشرق على حركاته وسكناته. تقدم الأربعة صوب مرقد الفقيدة، وركعوا حوله في خشوع طويل يرفعون صلواتهم ويبكون في صمت، كانت دموعهم، رغم مرارتها، تجد طريقاً عذباً، إذ كانوا يبكون على الابنة المحبوبة، والشقيقة العزيزة، والخطيبة المأسوف عليها، متيقنين أنها في السماء بين مصاف القديسين، يلتمسون صلواتها، وهي البارة التي استشهدت في إخلاصها.

أما الراهبات، فقد انصرفن عن الغرفة تقديراً للزائرين الذين ذُكروا، ورفقاً بهم في وقت حزنهم.

لم يكن البارون قادراً على تحويل نظره عن جسد الراحلة، والتي تبدلت ملامح وجهها، وكأنها قد أصبحت مشعة بنور سماوي، نور مجد يخلدها بين أولياء الله. وفي تلك اللحظة، همس في نفسه قائلاً:

– أيتها الطاهرةً نبيلة الأخلاق، أيتها القديسة، لم أكن أستحق الاقتران بك، رغم أنني قضيت ثلاثين عاماً من حياتي في العمل الدؤوب والكفاح لأغدو أهلاً لنيل هذا الكنز الثمين. ولكن الله منحني فرصة أن أرى فضائلك، وأن أتأمل ذلك النور الذي يتجسد فيكِ. ليتبارك اسم الله، إذ أنني خاضع لأوامره وأحكامه التي تفوق إدراكنا البشري.

وفيما كان البارون يعبر عن حزنه وتأثره، نهض السيد "ب" مهيباً، ثم قبض بقوة على يد "سوسنا" وجعلها في يد شارل قائلاً: "ليحب كل منكم الآخر يا أولادي، ولتظلوا متحدين يداً بيد، كما كانت أمنية فقيدتنا العزيزة. هذه أمنية طاهرة، ومن أعلى السماوات، تباركم كما أباركم أنا."

وبينما كان السيد "ب" مختنقاً بهذه الكلمات المؤثرة، توقف عن الكلام فجأة، ونهض الجميع معاً ليطبعوا القبلات على

نعش "وريدة"، وعانقوا ذلك الصليب الذي ينتصب فوق رأسها، حيث تلامست أرواحهم الحزينة المحملة بذكرى الشجاعة التي أظهرتها الفقيدة في لحظة المعركة التي حسمت بتضحيتها بحياتها.
ثم جاءت تلك اللحظات التي توالت على الفقيدة مليئة بالتجارب والأحزان، حيث بدت بمثابة نقطة تحول في قلوبهم. أحسوا وقتئذ بسلام عميق وسعادة نادرة، تلك السعادة التي لم يشعر بها أي منهم منذ سنتين. تجمعوا معاً، وقد اجتمع الحزن في أعينهم، وغرقت تلك العيون بالدموع، وكأنها تودع آخر لحظة من الألم. كانت تلك هي آخر دموع تذرفها أعينهم في حياتهم، مثلما توقعت "وريدة" قبل أن تودعهم إلى الأبد، فقد علمت أن هذه اللحظة ستغدو تتويجاً لرحلتها الباقية في ذكراهم.
وهكذا، لم تمضِ فترة طويلة حتى برحِ القنصل العام وأسرته مدينة فيينا عائدين أدراجهم إلى سوريا، حيث بدأت رحلة جديدة لعائلة كانت قد أودعت جزءاً من نفسها في تلك المدينة العتيقة. ومع بداية فصل الصيف، اقترن شارل بسوسنا برباط جديد متين كأهداب الزمن ينسج بينهما معاني الحب والوفاء. ومنذ تلك اللحظة، ظلت السعادة التي فاض بها قلب سوسنا قابعة في زوايا حياتها ملهمة إياها السكينة والطمأنينة في منزلها القديم، والذي أصبح ملاذاً للراحة والتأمل. هناك، حيث كانت تجلس في هدوء، تسترجع ذكرى الراحلة أجنيس التي ظلت حية في قلبها، وكأن روحها لا تزال ترفرف إلى جوارها. حملت تلك الذكريات بين طياتها مشاعر الامتنان العميق والمحبة الصادقة، حيث راحت تتفتح في قلبها كما تتفتح الزهور على ضوء الشمس فتبقى على الدوام شاهدة على فضائل الراحلة.
أما غرفة الذكريات، فقد بقيت على حالها في البيت، إذ أصبح "شارل" المسؤول عنها، والذي يدير شؤونها بكل حب واهتمام، وقد أضافوا إلى ما كان قد جمعه شارل في تلك الغرفة جميع الآثار التي كانت سبباً في تعزية وريدة في لحظات احتضارها. وفي كل سنة، في يوم أحد الشعانين، اعتاد جميع أفراد العائلة الولوج إلى تلك الغرفة التي أصبحت بالنسبة لهم متحفاً، بل مقدساً للنقاوة والتقى. راحوا يتذكرون جميع الحوادث التي مرت عليهم، وتلك الذكريات التي أحيتها الآثار الباقية أمام أعينهم، ثم يجثون راكعين أمام الله، ويلتمسون الحماية من تلك الروح الطاهرة التي كانت طيلة حياتها ملاكاً يقف على حراسة تلك الأسرة الفاضلة.
ومع تعاقب السنين، وبعد عامٍ على تلك الأحداث التي بقيت خالدة في الذاكرة، كانت سوسنا برفقة ابنتها الصغيرة تضمها إلى صدرها بعطف يفيض دفئاً واحتواء، وكأنها تحتضن بين ذراعيها ذكرى أجنيس دو لينس التي حملت الطفلة اسمها، وامتدت روحها في وجودها. وفي كل لحظة تعيشها العائلة، كانت ذكرى الشجاعة والبطولة التي جسدتها تلك الراحلة العظيمة تتجدد، إذ ظل اسمها محفوراً في ثنايا الوجدان عصيّاً على النسيان، لا تمحوه السنون مهما تعاقبت، ولا يبهت وهجه مهما امتد الزمن.